Orient. Seminar
UNIVERSITÄT
78 Freiburg/Br.
Inv.
Az 14/8

المقتطف

الجزء الاول من المجلد السادس بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٥ ١٧ محرم سنة ١٣٦٤

عقار جديد

لعلاج السّل والجذام

في دار قديمة ألْوت بها الرياح على ضفة نهر دترويت ، كان رجلان يتحدثان ، وكان أحدهما الدكتور ليون سويت مدير البحث الكيميائي في شركة بارك دايفس المشهورة في صناعة العقاقير ، وكان الآخر الدكتور لويس بامباس المتوفّر على تركيب الذرّات بعضها مع بعض لإنشاء مركبات كيميائية جديدة .

وطوّف الرجلان في حديثهما بموضوعات كثيرة ، ولكنهما لم يعرجا على الجذام والسل ، اللذين ما فتئا منذ قديم الزمان في الطليعة بين نكبات البشر ، وقد عجز العلم عن أن يحرز غلبةً تذكر عليهما أو على أحدهما . وقد باءَت بالإخفاق جميع بحوث العلماء لكشف لقاح واقٍ أو علاج شاف للسلّ . وعجز الباحثون عن نقل الجذام الى حيوانات التجارب ، عن العثور على علاج لهُ . وجلّ ما استطاعهُ العلماء ، هو أن يصفوا الراحة والغذاء الجيد للمصاب بإحدى العلّتين .

ومع ذلك فالسلُّ يقتل ستين ألفاً كلّ سنةٍ في الولايات المتحدة ، ويمرض ثلاثمئة ألف . والجذام ينكب من ثلاثة ملايين إلى خمسة ملايين في جميع أقطار الأرض . وقد كان سويت وبامباس يعرفان هذه الحقائق ، وما كان يقابلها من فتك سائر الأمراض بالناس ، ولكن همهما يوم اجتمعا وتحدثا لم يكن منصرفاً الى السلّ ولا إلى الجذام .

قال سويت : إن ثمة باحثين كثيرين يبحثون عن عقاقير عجيبة في أسرة السلفوناميد ،

لعلاج طائفة من الأمراض لم تدن لعقار ، ولكن من المستغرب أن يهمل الجميع طائفة المركبات المعروفة باسم : سَلْفون .

واقترح سويت على بامباس أن يعنى بهذه المركبات عسى أن يجد فيها عقاراً ناجعاً في كفاح الجراثيم السترپتوكوكية ، التي تسبب تسمم الدم والتهاب الجروح وتعفنها ، وعسى أن يكون هذا العقار أفعل من عقاقير السلفا وأقل منها فعلاً ساماً .

فقال بامباس : إن هذا بحث على غير هدى ، وقد يستغرق وقتاً طويلاً ويستنفد نشاطاً عظيماً ثم لا ينتهي إلى شيء له قيمة ما . فليس ثمة ما يدل على أن لطائفة « السلفون » فائدةً في الشفاء ومع ذلك فلنجرِّب .

وهذا القول يمثل لوناً من العلم ينبع من الحاجة وينساق مع الواقع ، وغرضهُ محدودٌ لا يعدو حبةً أو سائلاً يحقن به تحت الجلد ، فيشفي من مرض ويقبل عليهِ الأطباء ، ولكنهُ ذلك اللون من العلم الذي أسفر أولاً عن كشف عقاقير السلفا .

وعاد بامباس الى معملهِ وبدأ يبحث . وكان البحث يبعث السآمة ، ويجري فيهِ الباحث على نمط معيَّن لا يكاد يكون عنهُ محيد . فعلى الباحث أن ينفق الأسابيع الأولى في إبداع مركّب كيميائي جديد ، ثم يحقن بهِ أرنباً أو فأراً . فاذا وقع الأرنب أو الفأر ميتاً ، فقد وجب نبذ المركب لأنه سمٌ زعاف ، فيضيع معهُ جهاد أسابيع . ولكن إذا بقي الفأر على قيد الحياة ، فعندئذٍ يضع الباحث قليلاً من هذا المركب في أنبوب اختبار حافل بالجراثيم . ثم يراقب ما يحدث في الأنبوب . فاذا قتل المركب الجراثيم في الأنبوب اغتبط الباحث بما تمّ ، واذا أبطأ المركب نموَّ الجراثيم بالفتك بأجهزة الهضم فيها أو بأجهزة التكاثر ، اغتبط الباحث كذلك .

وبعد أن يتبيَّن الباحث هذه الحقائق يخطو الخطوة التالية ، بأن يحقن بالجراثيم فأراً أو أرنباً هنديًا ، ثم يحقنهُ بعد ذلك بجرعة من هذا المركب لكي يرى هل ينقذهُ المركب من فتك الجراثيم .

فالبحث يجري على هذا المنوال ، بمركّب في أثر مركب ، على نمط خليق بأن يبث السآمة في نفس الباحث — إلاَّ إذا كان موفقاً .

وانقضى على بامباس أشهر وهو يتبع هذا الطريق المملّ في البحث ، ثم أشرق لهُ وجه التوفيق في أحد الأيام . وكان قد سبق لهُ فركّب من ذرَّات النتروجين والايدروجين

والسكربون والأوكسجين والسكبريت والصوديوم مركباً غريباً كان مسحوقاً أصفر أطلقت عليه شركة بارك دايفس اسم برومين Promin

***

لننتقل الآن إلى معهد مايو في مدينة روتشستر بولاية ميفسوتا ، فنجد هناك باحثاً يدعى الدكتور وليم فلدمان ، وكان معنيًّا ببحث العقاقير الجديدة التابعة لأسرة عقاقير السلفا . وقد كتب فلدمان إلى الدكتور سويت يسأله أوجد أحد الباحثين في شركته عقاراً جديداً ما من عقاقير السلفا . فيرسل إليه سويت ، بالبريد ، حفنة من مسحوق بامباس الأصفر.

ويتبع ذلك بحث طويل مملّ . فيجرّب المسحوق بالجراثيم الستربتوكوكية ، فيؤثر فيها بعض التأثير وحسب . ثم يجرب في الجراثيم النموكوكية التي تحدث التهاب الرئتين ، والجونوكوكية التي تحدث السيلان . فيؤثر فيها ولكن تأثيره ليس باهراً . ثم يخطر لفلدمان أن يجرّبه بباشلس الدرن (السل وما أشبه) .

وعليك أن تذكر أيها القارئ الكريم ، أن عقاراً ما لم يؤثر قبلُ في هذه الجرثومة البطيئة الصلبة المراس ، التي تسبب السلّ .

فمنذ سنوات كانت جماعة من الباحثين قد جرّبت السلفانيلاميد فوجدت أن هذا العقار لا يؤثر تأثيراً ما في باشلس الدرن إلاّ حين تبلغ الجرعات مبلغاً كبيراً ، فتك بستين في المئة من حيوانات التجارب ، فلم تتبين الجماعة أملاً ما في مكافحة السل بالسلفانيلاميد . فليس ثمة مسلول واحد يرغب في أن يتعاطى دواءً يبلغ احتمال فتكه به هو ، ستين في المئة .

ولكن فلدمان قال في ذات نفسه : إنّ هذا العقار الجديد ، ليس من أسرة السلفا . إنهُ من أسرة السلفون . فثمة أمل . وعلى كلّ حال إنهُ جدير بأن يجرّب . فبعث إلى زريبة حيوانات التجارب يطلب ثمانين أرنباً هنديًّا .

والأرنب الهندي خير حيوان لإجراء تجارب السلّ . فليس في جسمه مناعة طبيعية ضدَّ المرض . وما عليك إلاّ أن تحقنهُ تحت الجلد ببضعة من باشلس الدرن ، فلا تنقضي أسابيع حتى تستقرّ الجراثيم في أجسام الأرانب وتستأصل في الطحال والكبد والرئتين . وفي فترة تتفاوت من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر تموت جميعاً .

وكذلك حقنت الأرانب الهندية الثمانون بجرع فتاكة من هذه الجراثيم ، ووضع الباحث اثني عشر أرنباً منها جانباً ، تنتظر ما لا مفرّ منهُ . وأما الثمانية والستون الباقية ، فستعطى

البرومين ، في طعامها . وليس للباحث بعد أن تعطى البرومين من عمل إلاّ أن ينتظر وهو يراقبها .

فلم تكد تنقضي أسابيع حتى كانت الأرانب التي حقنت بالجراثيم ولم تحقن بالعقار في طريق الموت . وأما الأرانب الأخرى فكانت سليمة لا تزال . وما انقضى اليوم الثاني والتسعون بعد المئة ، حتى كانت الأرانب الأولى قد ماتت جميعاً ، بتأثير باشلس الدرن . وأما أرانب الطائفة الثانية فكانت ٨٤ في المئة منها لا تزال سليمة . ونصف الأحياء من هذه الأرانب لم تبدُ عليهِ أعراض سل مستفحلة . والنصف الآخر بدت عليهِ أعراض هيّنة . وكان وزن جميعها قد زاد بدلاً من أن ينقص .

على أن فلدمان وزميليهِ في البحث ، سلكا طريق الشك العلمي في نتائجهما الأولى فأعادا التجربة ، وظفرا بالنتائج نفسها . واهتمت جماعات أخرى من الباحثين بضبط النتائج فثبتت صحتها ثبوتاً لا يرقى إليه الشك . فهذا المسحوق الأصفر الشاحب ، يتخير من الجراثيم جرثومة الدرن ويؤثر فيها .

وحين كانت التجارب بالأرانب الهندية قائمة على قدم وساق انصرف بامباس وأعوانهُ إلى تركيب مركبات سلفونية جديدة ، بدا عليها أنها أهدى إلى الغرض المطلوب من البرومين وكان الطريق قد مهّد لتجربة هذه الجراثيم الجديدة في الناس .

سارت التجارب في الناس ، على الطريق المتبع ، وهو أن تختار المصابين الذين لا رجاء لهم في شفاء ، فاذا ظهر أن العقار سم قاتل ، فانما يودي بمصابين لا يرجون . وكان المصاب الذي عرض على الأطباء ، طفلاً في الثانية من عمره ، وكان مصاباً بالتهاب سحائي درنيّ .

وهذا مرض مخيف ، يحدثهُ باشلس الدرن ، حين يهجم على أغشية المخ والحبل الشوكي فيتألم المصاب ألماً فظيعاً . ويصيح من شدة الألم حتى يحبسه الاعياء . ثم تستولي عليه الغيبوبة وتتبعها الوفاة . والمرض قاتل لا ينجو منه أحد .

فبدأ الأطباء يحقنون الطفل بجرعات كبيرة من البروميزول — أحد أبناء عمومة البرومين . فلم تكد تنقضي ساعات ، حتى طفقت أعراض المرض تتحسن . وفي اليوم السادس كان الطفل منتصباً في سريره يلعب ، وبعد أسابيع غادر المستشفى .

وحين يبرأ مصابون ، مثل هذا البرء العجيب ، يقرر الأطباء الباحثون ، أن ثمة خطأً ما ، فربما كان التشخيص خاطئاً والولد لم يكن مصاباً بالتهاب سحائي درني . إذ يشق عليهم أن يصدقوا لفورهم ، أن مرضاً فاتكاً استعصى على الأطباء والباحثين منذ قرون ، قد دان لهم

بمثل هذه السهولة وهذا الحسم . فلذلك ارتابوا في صحة ما شاهدوه في حادثة هذا الطفل .

ولذلك عمد فلدمان وعشرات غيره يشتغلون في مصحات كثيرة في طول البلاد وعرضها إلى استعمال البرومين ليكون استعماله تجربة سريرية واسعة النطاق . فأخذهُ مئات من المرضى في أحوال ومراحل متفاوتة من المرض، وقد أخذهُ بعضهم من طريق الفم وحقن به بعضهم حقناً.

كان بعض المصابين ، حديث الاصابة ، وكان بعضهم قديمها ، وكان منهم المصاب بالدرن في الكليتين ، أو المصاب بدمامل درنية . فكانت استجابة بعض المصابين للعلاج الجديد ، موسومة بميسم المعجزات .

على أن البحث العلمي يقتضي ، أن يعرف معدل تأثير العقار في طائفة كبيرة من المصابين الذين أجريت فيهم التجارب ، لا أن يقتصر على مريضٍ واحد وحسب . فاليك خلاصة الاحصاءات الخاصة بطائفة مؤلفة من ٤٢٣ مريضاً .

من هذه الطائفة ، تحسنت حالة الثلث تحسناً لا ريب فيه ، وكان التحسن في بعضها سريعاً أتاح للمصابين أن يعودوا إلى عملهم . وقد مات تسعة وأربعون مصاباً ، منهم النصف قضوا بالالتهاب السحائي الدرني . أما في بقية المصابين فقد كان التحسن مشكوكاً فيه ، أو ظل المصابون على حالهم . وقد أثبتت هذه التجارب أن العقار الجديد ، شديد التأثير في المراحل الأولى من المرض .

وإذا كانت هذه التجارب لم تثبت حتى الآن ، أن العقار الجديد علاج ناجع حاسم للسل ، فانها أثبتت على الأقل ، أنه أفعل وأنجع من أي عقار سابق .

***

هذا النجاح في علاج السل — وإن لم يكن تامًّا حتى الآن — حمل الباحثين على تجربة العقار الجديد ، في إصابات الجذام . فبين الداءين وجوه شبه كثيرة . إن سببهما كليهما جراثيم عصوية ، ومن لم يكن مدرباً على التفريق بين فصائل الجراثيم ربما تعذر عليه أن يفرق بين جراثيم الدرن وجراثيم الجذام . والمرضان كلاهما ، يقتلان المصاب قتلاً بطيئاً ولا يقضيان عليه بهجوم خاطف كما تفعل الجراثيم الستربتوكوكية . فقد يعيش المجذوم مجذوماً عشرين سنة أو ثلاثين . وقد ينزل الجذامُ بالمصاب العمى ، ويغطي جسمه بالقروح ثم ينتهي به المطاف إلى أن يموت بشيء آخر — كالالتهاب الرئوي .

وإذا كان السل مرضاً يحيط به الغموض ويحير الأطباء والباحثين ، فالجذام أشد غموضاً وتحييراً . وقد وصف منذ ستة آلاف سنة ، ومع ذلك فقليل ما يعرفه العلم عنه ، وقد كشف

جرهارد هانسن الباحث النرويجي جرثومة الجذام سنة ١٨٧٤ ولكن جميع مساعي العلماء لاستحداث الجذام في حيوانات التجارب قد باءت بالخيبة .

وقد عمد فريق من الباحثين إلى محاولة استحداث الجذام في أبدانهم فحقنوهم بجراثيم الجذام . ولم تسفر جميع تجارب استحداث الجذام إلاّ عن حادثة واحدة أصيب فيها رجلٌ في جزائر هواي . وقد كان الرجل محكوماً عليه بالاعدام فتطوّع للتجربة ، وحقن في بدنه بجراثيم الجذام في سنة ١٨٨٤ فمات مجذوماً سنة ١٨٩٠ . ومع ذلك كان الشك يحوم حول صحة إصابتهِ فقد قضى حياتهُ كلّها يجاور المجذومين ويخالطهم ، ومن المحتمل أن المرض كان كامناً فيهِ قبل أن حاول الباحثون أن يستحدثوه في جسمه .

والتاريخ يحدثنا أن الجذام اكتسح أوربة في القرون الوسطى فكان في القارة الأوربية عشرون ألفاً من ملاجئ المجذومين . ثم زال المرض من أوربة ، ولكنه آخذ في الازدياد في البرازيل .

والمرض لا ينتقل بسهولة ، على خلاف ما يُظن . فاصابة الأطباء به بالعدوى في مستشفيات الجذام نادرة ، وتدلّ الاحصاءات أن اثنتين من كل مائة من زوجات المجذومين أصيبتا بالجذام . ويكاد يوجد في كل مدينة كبيرة عدد من المجذومين يزاولون أعمالهم .

كان اعتماد الأطباء في علاج المجذومين ، على الراحة والطعام المغذّي ووقاية المصاب من الأذى . وإذا استثني زيت الشولموجرا — وهو زيت يستخرج من جوز شجرة هندية — فان الأطباء لا يملكون عقاراً ما لعلاج المرض ، ومع ذلك فالكثيرون يشكون في فائدة هذا الزيت .

فلم يكن أمراً غريباً أن يسترعي عناية المعنيين بمسائل الجذام ، ما عرف عن فعل البرومين في المصابين بالسل ، وكان في طليعة الذين عنوا بهذا العقار ، جماعة الباحثين في مستشفى الجذام بمدينة كارفيل في ولاية لويزيانا الاميركية . فقرّر الدكتور « فاجت » أن يجرّب البرومين في طائفة من المرضى ، اعتماداً على ما بين السل والجذام من وجوه شبه .

فاختار عشرة مجذومين لهذه التجربة ، وأعطاهم جميعاً هذا العقار جَرْعاً . فرض معظمهم وأصيبوا بالغثيان والصداع ، وتفاقمت فيهم حالة فقر الدم . فقرر فاجت أن يعطيهم العقار حقناً في الوريد ، واختار لذلك اثنين وعشرين مصاباً .

ثم وضع خطتهُ : يعطى المرضى جرعات تختلف من جرام واحد الى خمسة جرامات كل يوم خلال أشهر . ثم تلي ذلك فترة أسبوعين ، يعفى فيها المصابون من الحقن بالعقار ثم

يستأنف العلاج . ويبلغ عدد فترات الراحة ثلاثاً في السنة . ولـكي يدفع فقر الدم أعطى فاجت كلّ مصاب منهم طعاماً يحتوي على الكبد والحديد .

فأسفرت هذه التجربة عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن نتائج التجربة السابقة . وقد ندر بين المصابين الذين أجرت عليهم هذه التجربة ، من أصيب بردّ فعل يذكر — نعم إنّ ثلثهم أصيب بالغثيان ولـكنهُ كان خفيفاً وعابراً . على أن المصابين الذين حقنوا بهذا العقار ، لم يستجيبوا استجابة سريعة تستوقف النظر ، ولـكنّ البقع النحاسية على جلدهم — وهي علامة الجذام — بدأت تتحسن رويداً رويداً وأخذ الجلد يستردّ حالتهُ السوية ، وشفيت القروح الفاغرة ، وتحسنت الالتصاقات الجذامية في العين ، بعد أن كانت تهددها بالعمى ، وقل تورُّم الالتصاقات التي في المسالك الأنفية والحلق ، وهي التي تحدث الاختناق ، واندملت القرح التى في اللسان والشفتين وسقف الحلق .

وتتلخص التجربة التي أجريت على اثنين وعشرين مجذوماً في أن خمسة عشر منهم تحسنت حالهم تحسناً لا ريب فيه . وظل ستة على حالهم . وساءت حالة واحد منهم . ويرى الدكتور فاجت أن هذه التجربة أحفل بالأمل من جميع التجارب التي أجريت على الاطلاق .

***

ومجمل القول الآن أن عقار البرومين والعقاقير التي على شاكلتهِ ليست حلاً نهائيـاً لمشكلتي السلّ والجذام . فهذه العقاقير يلازمها فعل سام خفيف وليست نوعيةً تماماً ، وكل علاج بها يحتاج إلى جرعات كبيرة منها للظفر بنتائج طيبة . وقد بلغ ما حقنت به أوردة بعض المصابين الذين عالجهم الدكتور فاجت ، خمسة أرطال

فلا يجوز أن يذهب أحد ممن يقرأ هذا المقال إلى أن هذه العقاقير هي العلاج الناجع المطلوب فهي لا تباع الآن في الصيدليات ، وربما ان تباع في حالتها الحاضرة على الأقل .

ولـكنّ العلماء الذين وفقوا إلى هـذه العقاقير أشبه ما يكون بجماعة من الباحثين عن الذهب . فقد رفعوا التراب عن عرق من الذهب ، ولا يزال عليهم أن يستخرجوا الذهب المدفون في جوف الأرض . ولعلّ الدواء السـاحر الذي يقضي على السلّ والجذام ، عند منعطف الطريق .

(نقل بتصرف يسير عن مجلة « خلاصة العلم »)

على المشنقة ...

قصة

محمود تيمور

« تحية لصديقي اليوزباشي عبد المنعم
أبي السعود ضابط سجن سوهاج »

كان جالساً القرفصاء في حجرته الفردية من السجن، معتمداً ذقنه بيديه، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه. ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر، فحجرته ليست كلها إلا حوائط متشابهة ...

وذلك الظلام المخيم على كل شيء كان يراه شائعاً حوله، ويحسه يغمر دخيلة نفسه. إنه الظلام الدائم العابس، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقاً. —

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مبنى السجن، كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تختفي فيه عن الأنظار! —

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس، وإن كان يذكر أن بصيصاً يدلف إليه حيناً بعد حين، فلا يعرف: أبقية هي من أشعة الشمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسدود، أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب؟

وذلك الصمت الثقيل... كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذي يحتويه... صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة، فيترامى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً مزّق بُعد الشقة أشلاءه، فلا يبلغه إلا أصداء غامضة لا يدرك لها كنهاً، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس نفسه الموحشة.

وقد اتخذت هاته الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة

حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنما انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى في قرارتها كأنه إحدى الهوام التي تأوي إلى جحورها في بطون المغاور والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً ...

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً .. وسينفذ الحكم يوماً ما إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه . . . إنه ليذكر تلك اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ، ووجهه المستدير المطهم ذي العينين المتألقتين . . .

كان في قفص الاتهام والحراس حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكمة تنتهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قويًّا ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنهُ كائن موجود لم يمس بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رحبة تزخر بالنور والهواء والضجة ... لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حيًّا يتحرك ويتنفّس ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد ... لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منهُ ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه . . . وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلىء قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحس رعشة تتمشى في أوصاله فتوهن ساقيه ، وهمّ بأن يبتسم فأحس بعضلات وجهه تتقلّص كمن أجهش بالبكاء ، أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجهوريّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة قائلاً :

ما قتلت إلاّ منتقماً لشرفي ! ... ربنا عادل ... الأمر لله ...

وعجب لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ عبد المتجلّي عزيز قومه

وعميد بلدته في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكم نصيباً ، من استطاع أن يوفق في نظره بين روح التديّن وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له ، الرجل الذي أقام نفسه بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه حاكماً مهيب الرأي مخشيّ الجانب ، يفصل في المنازعات وينزل العقوبات بأصحابها دون أن يردّ له أمر أو نهي ...

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والقاضي والمحامي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جان فهو جانٍ ما من ذلك بدّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع ، بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لمّا أسرَّ إليه أحد أعوانه « سعداوي » أن « ستيتة » حقَّ عليها العقاب ، إذ فرطت في شرفها وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبيراً من الحب والإعزاز . . . وبعد أن استيقن من « سعداوي » أن الأمر جدّ لا يحتمل التأويل أحس على الفور حميّة الشرف تهب أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يثأر للشرف المثلوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتم أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يبح بما تمَّ في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيباً إلى البلدة قبيل الغروب حتى رماه بطلق ناري وهو يغمغم : هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته « ستيتة » وهي مغرقة في سبات ، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها توّاً وأعمل السكين المسنونة في رقبتها ففارت في أوداجها حتى كاد يهوي الرأس عن الجسد ، وهو يهمهم : الله أكبر ! ... فلتموتي أيتها الفاسقة

الآثيمة ! ... وترك الجثة تختلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يشخب منها دفاقاً. ومضى يمسح السكين في قبائه ، ثم ذهب فاغتسل وأوى إلى فراشه ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تجمهر الأهلين ، هرج ومرج ، شرطة ورجال تحقيق ... ثم ألفى نفسه نزيل السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يقسم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحجاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ويقعقعون بأسلحتهم المزهوبة ... تشابكت في رأسه المشاهد ، واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشى ذلك كله ضباب متراكم ، ولكن صورة واحدة بين ألفاف هذه الصور الغامضة ظلّت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوي » الذى سعى إليه بتهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذي لم يكن في الحسبان ... إن اعتراف هذا « السعداوي » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صخابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه القتيلين في شرفهما لم يكن إلاَّ تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنهُ إنما عمد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيل لضغائن كمينة ، ومن « ستيتة » لأنها حرمته ما كانت تجزله لهُ من عطاء ... إذن لقد وضح للشيخ عبد المتجلي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها ، لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيًّا أميناً بلا جريرة كأنهُ يلهو ويعبث ...

وغضّ من بصره ، وجعل يقرض أظفاره بعنف ، حتى أدمي أنامله . وصعّد زفرات حرّى ... وسرعان ما لاحقه الريب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فراسته لم تخطىء مرة وبصيرته لم تكذبه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك «السعداوي» بأنه واشٍ كذوب ؟! ... وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قتل بلا موجب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟ .

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران

البئر المظلمة التي لا منفذ لها ... وفتح عينيه جهد إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر ... وتمثلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه ليراه الآن أمامه جليّ الصورة ، واضح القسمات ، منكبّاً على أوراقه ، فاذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركز بصره دائماً في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شيء . . . وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صلعته ملتمعة وتختفي سريعاً ... وقد نطق بحكمه في صوت أخنّ ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جارٍ له حديثاً تافهاً لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشيخ عبد المتجلي منسرح الفكر في هذه الأخيلة ، إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يشنق ولن يمسه أحد بضر ... لقد قتل من قتل ثأراً للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السعداوي » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكبّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج : لقد خدعتك يا عبد المتجلي . لقد أثرت حفيظتك على بريئين . أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك ستراً ولا أن يلحق بك عاراً . عفوك عفوك .

وكان يصغي إلى استغفار هذا « السعداوي » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يُجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً كالمعتوه لم يحرك ساكناً ؟ إنهُ يذكر أن كل ما فعلهُ ساعتئذٍ أنه ازورّ ببصره عن « السعداوي » وهمهم : إن الله لا يظلم من عباده أحداً . . .

ثم طفرت من عينه دمعة فلم يمسها ، بل تركها تتهاوى على خده .

إنهُ ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك وجعل يتحدث إليه حديثاً مسهباً مستفيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلا هذه الجملة التي ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ

عبد المتجلي . الحاكم هو الله ! » . . . وانصرف عنه المحامي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترن أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه ... لقد أحسَّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزه وخز الإبر !

وألفى لسانه يردّد وهو مطأطئ الراس : ليس للإنسان أن يحكم عل أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ! واعترته بغتة نوبة بكاء حادّ ، وتمادى في نشيجه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجمل به أن يبكي ، قد يمر على مقربة منه أحد الحراس فيسمعهُ ، فليكفكف دمعه ، وليكبح ثائرة نفسه ...

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله ! أيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه ؟ وإذا فرض أنه كان عادلاً في أقضيته لم يحد عن جادة الحق مرة ، فمن الذي نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته على فرض أنهم قد اقترفوا حقّاً جرائمهم التي اتهموا بها وتصدَّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يزجّ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لها ردّاً ؟ أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنهُ تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذرة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يقدم على فعلته إلاَّ ليطعم بنيه الجياع ؟ . ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ، وها هو ذا قد قتل متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضي عنهُ ، فهو في حساب نفسه بريء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب . . . إن أي رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردَّد في أن يفعل ما فعل ويقتل من قتل : المأمور الذي قبض عليه ، ووكيل النيابة الذي حقق معه وأدانه ، والقاضي الذي أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة لما تردَّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذي

يقدر على الإنسان ما نسبت يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هي إرادة علوية تتصرّف فينا منذ الأزل، فليدع البشر حكم السماء للسماء !

واعتمد الشيخ عبد المتجلي رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سبات لا يدري أطال به أم قصر ، ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أي وقت هو ؟ أفي مهبط الأصيل أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شيء حولهُ إلاّ الصمت والظلام . . . وأحسّ بالوقت يمر بهِ الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ... لقد أضحى لا يفكر في شيء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجىء غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب من أعماق قلبه متلمساً له منفذاً ... وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق ... وأُلقي في روعه أن الوقت الذي هو فيه إنما هو طلائع الصباح . وتأكد له هذا الحدس ، أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هي التي ألقت في روعه هذا الشعور ، أم بصيرته هي التي أوحت بذلك إليه ؟

الشمس الآن في طفولتها تتهادى على بساط الأفق بسامة تنثر الضياء وتشيع النشاط والحركة في رحاب الكون ، وهل نسي قط تلك الساعة الرائعة في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في منصرفه من المسجد وهو ينقّل حبات المسبحة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التي ألف أن يختم بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حياه نسيم السحر وهو على المصطبة الفسيحة أمام داره بسطت عليها مفارش صوفية زاهية الألوان ، وقد جلس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر متذوّقاً مستمتعاً بما تُهْدِي إليه من غذاء روحيّ ورضاً نفسيّ ! ...

على هذه المصطبة نعم حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسة وصفاء ، وبادله أحاديث كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سدد إليه طلقاً نارياً أرداه قتيلا . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تزخر بطلاب الحاجات ومن يفزعون إليه يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضي

في هذا المكان شطر نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تعده أخته له بارع الطهي مختلف الألوان شهيًّا .

أخته !.. وتراءت له السكين المخضبة، وهو يمسحها في قبائه، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً ... أبريئة هي حقًّا ؟ لقد اعترف « السعداوي » بأنهُ كان أفّاكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار ... وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ ... إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها ... الله هو العالم بالنيات والسرائر ، فلهُ وحده الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله !

وخيل إليه أنه يسمع شيئاً : أحركة هي أم صوت ؟ أرهف أذنيه ، وأحدّ من بصره . إن الوقت صباح حتماً ... وفاجأته رعشة ، لقد حدث أنه سمع قبل ذلك أصواتاً وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن جسمهُ لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، ففيم هذه الرعشة الطارئة ؟ إنه يصغي في اهتمام ... لا ريب أن هناك حركة وهمهمة : أمن الدهليز صادرة أم من تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ ... إنها أصوات ... إنه وقع أقدام .. وأحسّ بقشعريرة تسري في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوّل كله آذاناً صاغية . أحُرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم ... أم ...

وتسمّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل ... وخُيّلَ إليه أن حديثاً يوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحد الحرّاس فطوره ، إنه أجود فطور وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن ... ووجد يده تمتد في تباطؤ وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يلقي باللقيمة بين شدقيه ... لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردّد في صوت أجهر من ذي قبل :

الحمد لله على نعمتك يارب ...

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثلة الحرّاس حوله نطاقاً ، وساروا جميعا ...

كان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء . وشاعت على محياه بسمة غامضة : أبسمة أسًى هي أم بسمة تهكم ؟ وكان لا ينفكّ يردد :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار في الدهليز تغمره لجة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تواب . من هو الشيخ عبد المتجلي بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازي الناس سوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما الله جل شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلاّ بالعفو والرضوان .

وسِيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلاّ بهذه المنصة الصغيرة التي تدلّت عليها من السقف أُحْبُولَة مفتولة ... أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لأشبه بأرجوحة الصبيان في القرية

وتجمع إحساسه حول نفسه ، وتعمق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما حوله ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذي هو فيه بجثمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة ...

وخيل إلى الشيخ عبد المتجلّي أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسباب الحكم عليه . وأبصر خلف الضباب الذي كان يغشى عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألفى نفسه يدفعه عنه . ووجد قدميه تخطوان نحو المنصة ...

وفي هذه اللحظة طرق سمعه صوت قائل : ألا تشتهي شيئاً ؟ بماذا توصي ؟

وأحسّ يداً تدير الأحبولة حول عنقه ، فأجاب بصوتٍ بيّن :

إني بريء ... كلنا أبرياء .. الله وحده هو الذي يملك الحكم على عباده !

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرفه الانسان عن جسمه ونفسه

في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

أكتب بهذا الأسلوب للمثقفين من الأطباء وغير الأطباء موضوعات تلتقي فيها المعلومات الطبية المبسطة بالمعلومات العامة وببعض ما له اتصال بشؤون الحياة الاجتماعية والنفسية والجسمية والخلقية وغيرها. ولعلي أوفق للوصول إلى الغاية التي أرمي إليها، لأني أشعر بحاجة الجمهور إلى ما يفيده من المعلومات الطبية المبسطة ليحافظ على صحته ويساعد طبيبه على العناية به إذا ما مرض.

وقد ابتعدت عما يشوش الذهن ويلقي الوساوس في النفوس، وتجنبت مناقشة الموضوعات التي لم يبت فيها، مكتفياً بما اتفقت عليه الآراء واعتمده جميع الأطباء والباحثين.

حرارة الجسم

• كلنا يلاحظ أن للإنسان حرارة يشعر بها عند ملامسة جسمه أو ملابسه الملتصقة بجسمه بعد خلعها أو مرقده على الفراش بعد تركه — فما هي هذه الحرارة؟ وكيف تتولد؟ ومن أين مصدرها؟ وكيف توزع على أجزاء الجسم؟ وكيف تتصرف؟ هذا ما سنعالجه.

أصبح من المعلومات العامة أن حرارة الانسان الطبيعية normal هي حول ٣٧ درجة بالترمومتر المئوي. وهي حرارة شبه ثابتة. فقد تنقص أو تزيد بمقدار لا يتجاوز بضعة أشراط، ومعلوم أن كل درجة من الترمومتر المئوي مقسمة عشرة أشراط.

• تنخفض هذه الحرارة بضعة أشراط وقت الجوع وأثناء النوم، وتزيد قليلاً على معدلها أثناء عملية الهضم، وبعد مجهود عضليٍّ شديد. وتتغير الحرارة على حسب أوقات الليل والنهار، فبعد منتصف الليل بين الساعة ٣ صباحاً والساعة ٥ صباحاً تكون في أدنى درجاتها إذ قد تصل إلى ٤/١٠ ٣٦ أو أقل قليلاً، وبعد الظهر في نحو الساعة ٥ تكون في أعلى درجاتها إذ قد تصل إلى ½ ٣٧ أو أقل قليلاً، ثم تنخفض تدريجيًّا وهكذا. وقد تنعكس الآية فتزيد الحرارة في الليل وتنخفض في النهار في حدود هذا التغير البسيط عند من يسهرون

ويعملون في الليل ، ويستريحون وينامون بالنهار . وعلى أي حال لا تتجاوز هذه الفروق زيادة أو نقصاً عن بضعة أشراط، وإن نقصت أكثر من درجة أو زادت أكثر من درجة عُـدَّ ذلك غير طبيعي ووجب البحث عن سببه .

• أدنى حرارة وصل إليها جسم الانسان - كما يحصل حينما يطمر في الثلوج - واستعاد بعدها صحته وقوته وحيويته بوسائل التدفئة والعلاج ، هي درجة ٢٤ مئوية وهذا نادر .

• يجب أن نشير إلى أن الحرارة في الحالة الطبيعية فضلاً عن أنها تتغير قليلاً في فترات الليل والنهار وأثناء الهضم —وبُـعد المجهود العضلي كالألعاب الرياضية والجري والسفر الشاق وما شابه ذلك — ليست على وتيرة واحدة عند كل الأفراد . وإذا اتخذنا درجة ٣٧ حرارة طبيعية فذلك على حسب المشاهد بين ٨٠و٩٠ في المئة من الأشخاص— فبعض الأفراد حرارتهم العادية ٣٦ دون أي عارض . وتزيد بضعة خطوط وتنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها . وتعد عندهم درجة ٣٧½ ازدياداً غير طبيعي في حرارتهم . كما أننا نلاحظ في أفراد آخرين أن حرارتهم الطبيعية ٣٧½ دون أي عارض ، وهي تزيد أو تنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها، فعند هؤلاء لا تُـعدّ درجة ٣٨ ازدياداً غير طبيعي، بل تعد درجة ٣٦ نقصاً غير طبيعي يجب البحث عن سببه .

• هذا الشذوذ يوجب على كل إنسان أن يعرف معدل حرارته الشخصية ليخبر بها طبيبه إذا ما مرض . ولتبين معدل الحرارة تؤخذ في فترات مختلفة بضعة أيام في الصيف وبضعة أيام في الشتاء مرة واحدة كل عشر سنوات ، أو في فترات التغيرات الطبيعية عند الإنسان أي في سن الطفولة قبل الخامسة وبعد الخامسة وفي سن البلوغ وفي سن الرجولة وفي سن الشيخوخة — والساعات التي تؤخذ فيها الحرارة لهذا الغرض هي الساعة ٨ صباحاً والساعة ١٢ الظهر والساعة ٤ بعد الظهر والساعة ٨ مساء والساعة ١٢ نصف الليل . وهذا مهم أثناء المرض ليقدر الطبيب ذلك العامل الشخصي عند تشخيص المرض وعلاجه.

***

• الحيوان على حسب حرارته نوعان : الأول ذو الدم الحار كالانسان والقردة والخيل والحمير ، والثاني ذو الدم البارد كالزواحف والسمك والبرمائيات .

فالإنسان وغيره من ذوي الدم الحار لا تتغير حرارته بحسب الجو المحيط به إلاّ مدة قصيرة، فلا تزيد بمجرد الحر ولا تقل بمجرد البرد إلاّ درجة خفيفة مدة قصيرة، وإن زادت أو نقصت كثيراً دخلت البنية في دور مرضي، خصوصاً إذا استمرت الزيادة أو النقص فترة

طويلة . والإنسان في ذلك كغيره من الحيوانات كالكلاب والقططة والقردة والغنم والخيل والحمير ، وكل الحيوانات الثديية والطيور غيرها تعد حرارتها ثابتة لا تتغير بحسب الجو المحيط بها . وتسمى ذوات الدم الحار لتميزها عن غيرها من الحيوانات ذوات الحرارة المتغيرة على حسب البيئة التي تعيش فيها، فإن كانت حرارة هذه البيئة ٣٠ كانت حرارتها ٣٠ وإن كانت ١٠ كانت حرارتها ١٠ وهكذا . وتسمى هذه الحيوانات ذوات الدم البارد مثل الزواحف كالثعابين والسحالي وما شابهها والسمك والبرمائيات وكثير من الحشرات . والدم هو الذي يوزع الحرارة على جميع أجزاء الجسم في كلا النوعين حتى تكون الحرارة متقاربة في كل الأعضاء.

***

• أجنة الحيوانات الثديية داخل الرحم تتبع حرارتها حرارة جسم الأم . ويلاحظ أن الحيوانات التي ترقد وتعتكف في الشتاء hibernating . وإن كان بعضها من ذوات الدم الحار تتغير حرارتها على حسب مقتضيات حرارة البيئة التي تعيش فيها مدة سباتها الاعتكافي في الشتاء .

• . ثمة ظاهرة عند الحيوانات ذوات الدم الحار ، وهي أن حرارة الجلد أقل قليلاً منها في الفم الذي تقل حرارته عن الأمعاء ، وهذه حرارتها أقل قليلاً من الدم الذي تقل حرارته عن الكبد ، ولكن كل هذه الفوارق لا تتجاوز بضعة أشراط . وحرارة الجلد تسمى حرارة سطحية ، وحرارة الأمعاء تعد داخلية .

قلنا إن الحيوانات ذوات الدم الحار ثابتة الحرارة، والسبب أن لديها وظيفة خاصة تكيف بها الحرارة في تولدها وتصريفها حتى تحافظ البنية على ثبات حرارتها بعملية فزيولوجية لا بد لفهمها من ذكر بعض معلومات تمهيدية .

• لاحظ كل من اشتغل في معمل الكيمياء أنه عند ما يجري بعض تجاربه الكيميائية ويضع محلولاً على محلول آخر يحدث بينهما تفاعل كيميائي ، وقد يحدث هذا التفاعل تغييراً في حرارة المخلوط نشعر به حينما نلمس أنبوبة الاختبار . وجسمنا معمل كيميائي معقد تحدث داخله تفاعلات كيميائية كثيرة بعضها يولد الحرارة وبعضها يصرفها .

وحديث التفاعلات الكيميائية يذكرنا ببعض ما عرفنا من احتياج الخلايا للأوكسيجين والتخلص من ثاني أوكسيد الكربون ، إذ يحدث ما يسمى التأكسد oxidation . ونرى أن استهلاك الأعضاء والأنسجة والخلايا للأوكسيجين وتخلصها من غاز ثاني أوكسيد الكربونيك وغيره من الفضلات يزيد كلما زاد عمل العضو ، ومن نتيجة هذه العملية تتولد

الحرارة . وهي عملية تشبه عملية الاحتراق لأن أنسجتنا تستهلك الأوكسيجين الذي يتحد مع المواد السكرية والدهنية، ويحدث تفاعل أو شبه احتراق تكون نتيجته خروج غاز ثاني أوكسيد الكربون . وتنتج حرارة من هذا التفاعل .

• كما أننا إذا أوقدنا ناراً ووضعنا عليها وقوداً أوفر زاد شبوبها ولهبها وكثر دخانها واستهلكت أوكسيجيناً أكثر من الهواء لمساعدة الاحتراق، كذلك يلاحظ أن أعضاء الجسم تحدث حرارة أكثر عند ما تعمل باجهاد أثناء تأدية وظيفتها وتحدث حرارة أقل عند ما تعمل ببطء أثناء تأدية هذه الوظيفة . وتقل حرارتها التي تحدثها جدًّا حينما تكون ساكنة لا تعمل .

• أهم عضو في توليد الحرارة الجسمية هو العضلات ، ووزنها يساوي تقريباً نصف وزن الجسم ، فيجب أن تكون الحرارة التي تولدها مساوية لنصف حرارته . وقد شوهد بالاختبارات الفزيولوجية أن عمل العضلات يسبب ازدياد الحرارة درجة أو درجتين عن الحرارة الطبيعية ، وتتولد هذه الزيادة من ازدياد عملية تأكسد المواد الغذائية بعد امتصاصها والتي يحملها الدم إلى العضلات فتستسيغها وتتصرف فيها . وقد يتولد بعض الحرارة من العمليات الفزيولوجية في الكبد والأمعاء والغدد وغيرها من الأنسجة ، ولكن إذا وازنا بين العضلات وبين بقية أعضاء الجسم باعتبار كل منها مصدراً للحرارة فإن النسبة الكبرى من حرارة الجسم تولدها العضلات ، ويعد مصدرها من الأعضاء الأخرى تافهاً قليل الأهمية .

• زد على ذلك أن العضلات وهي ساكنة بدون إجهاد ولا حركة لها عمل وقوة خاصة tone لحفظ مفاصل الجسم في مواضعها، وحفظ شكل الإنسان وقوامه وتوازنه ، وهذه القوة الخاصة tone وحدها تولد حرارة . وإذا ما فقدت العضلات هذه الخاصّة بأن أصيبت بالشلل أو حدث فيها ارتخاء ، قلّ تولد الحرارة منها ، وهذا ما يشاهد في بعض الأمراض الناهكة للقوى، إذ نرى بقية منهوكي القوى والطاعنين في السن إذا ما أصيبوا بمرض حُمَّويّ تكون زيادة الحرارة عندهم بسيطة جدًّا بالنسبة لما يجب أن تكون عليه عند الأقوياء ، وهي علامة سيئة لا يطمئن إليها الأطباء، وتسمى هذه الحالة «حمى بدون حرارة» apyrexial fever.

• إذا استمرت الحرارة في التولد بواسطة العضلات وغيرها وجب أن تستمر حرارة البنية في الازدياد . ولذا أوجدت الطبيعة وظيفة أخرى فزيولوجية لتصريف الحرارة من الجسم لفقدها حتى تعتدل وتكون ثابتة ، والأعضاء التي تؤدي وظيفة « تصريف الحرارة » هي الجلد بالعرق وغيره ، والرئة مع التنفس ، والكلى بواسطة البول ، والأمعاء بواسطة التبرز ، بالوسائل المختلفة التي سنشرحها . وأقل هذه الأعضاء أهمية في تصريف الحرارة هي

الكلى والأمعاء . وانتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصرفها يسمى اصطلاحيًّا «تكييف البنية لحفظ حرارتها ثابتة» .

• العضلات إذاً هي وسيلة الحركة البدنية ومولدة الحرارة . والجلد هو غطاء الجسد الخارجي وله وظائف كثيرة أهمها تصريف الحرارة . وهو عضو من أعضاء الجسم الرئيسية له جملة وظائف هامة ، لا مجرد غطاء . وتستمد العضلات موردها لتوليد الحرارة من المواد الغذائية التي تأكلها ، ولكل نوع من أنواع الطعام مقدرة على إعطاء وحدة حرارية أو طاقة حرارية (سُعْر calory) خاصة به تستعين العضلات بها لتولد منها الحرارة أثناء عملية التبادل الغذائي metabolisme في أنسجتها ، بأن تأخذ الأوكسيجين وتعطي غاز ثاني أوكسيد الكربون . ووحدة الحرارة (سعر calory) هي مقدار الحرارة الكافي لرفع حرارة لتر واحد من الماء درجة مئوية واحدة من الحرارة .

ويعد الرجل المعتدل في جسمه وعمله محتاجاً لمواد غذائية تعطي ٣٠٠٠ وحدة حرارية في أربع وعشرين ساعة يحصل عليها من الطعام الذي يأكله فيُهضم في الجهاز الهضمي ثم يمتص في الأمعاء ويسير في الدم إلى القلب فيوزعه على أعضاء الجسم المختلفة . وعندما تستسيغهُ خلايا الجسم ويحصل التفاعل تتولد الحرارة اللازمة . والدم هو الذي يوزع الحرارة على كل أعضاء الجسم كما ذكرنا آنفاً .

• أجريت جملة تجارب فزيولوجية لمعرفة ما يصرفه الجسم من وحدات الحرارة ، ولتقديره أثناء الراحة التامة والرقاد مدة ٢٤ ساعة ، فوجد أنه تلزم وحدة حرارة واحدة في الساعة الواحدة لكل كيلو جرام واحد من وزن الجسم . أي أن الرجل الذي وزنه ٧٠ كيلو يحتاج ١ × ٧٠ × ٢٤ = ١٦٨٠ سُعراً ليعوض بها ما يفقده جسمه منها . ويحصل عليها من غذائه . فالطعام هو الواهب والمنبه لانتاج الحرارة ، وأعضاء الجسم وأهمها العضلات هي التي تولدها مما يصل إليها من المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها .

• المواد الغذائية هي المواد الزلالية proteines والمواد الدهنية fats والمواد النشوية carbohydrates . والمتفق عليه بعد عدة تجارب أن كل جرام من المواد الزلالية يعطى من وحدة الحرارة ٤ر١ ، وكل جرام من المواد الدهنية يعطى ٩ر٣ ، وكل جرام من المواد النشوية يعطى ٤ر١ .

• المواد الزلالية هي أهم المواد الغذائية التي يستمد منها الجسم حرارته ، ولذا نرى أن الإنسان يميل بغريزته لأكلها مدة الشتاء لاحتياجه لحرارة جسمية لمقاومة البرد في الشتاء

أكثر من الصيف ، حقًّا إن المواد الدهنيــة تعطي وحدات حرارة أكثر ، ولـكن زيادة الأكل منهــا تحدث اضطرابات في المعدة . وسكان البـلاد الباردة على وجه العموم أغلب طعامهم الممتاز والمفضل من اللحوم والسمك والمواد الدهنية . وعندنا في مصر يقول العامل : أشتغل لأحصل على الخبز والملح ، أما في أوربة فيقول : أشتغل لأحصل على الخبز والزبدة !

• كلنا يلاحظ كثرة العرق في الصيف وقلته في الشتاء ، والسبب في ذلك أن الجسم محتاج لفقد حرارته حتى لا تزيد من شدة الحر ، لأن العرق يتبخر والتبخر يمتص الحرارة فتقل حرارة الجسم ولا تزيد على حسب حرارة الجو الموجودة فيه . ويلاحظ أن أوعية الجلد الشعرية تتسع فيحمر الجلد فيمر الدم في هذه الأوعية بغزارة ، لـكي تساعد على كثرة العرق وتلطيف الحرارة . وأما في الشتاء فيلاحظ انقباض الأوعية الشعرية وقلة العرق أو فقدانه لـكي لا يفقد الجسم حرارته . ويلاحظ في الصيف أيضاً نشاط الرئة لـكي تتلطف حرارة الجسم بالتبخر مع التنفس . وفي الشتاء يقل نشاط الرئة .

• من الأسئلة التي يسألنا إياها الجمهور : لماذا يقل البول في الصيف؟ بل لقد حضر عندي مرضى عصبيون يشكون قلة البول في أيام الحر ، والجواب سهل لأن العرق يكـثر في الصيف ويتصرف المــاء من الجسم بواسطته وبواسطة التنفس . ويكـفي أن يضع المرء أمام فمه سطحاً مصقولاً مثل المرآة ويتنفس فيها ليرى قطرات البخار متجمعة على صفحتها .

وفي الشتاء يزيد البول لقلة العرق ولقلة ما يتصرف من البخار مع التنفس ، وإن كنا نشاهد البخار مع التنفس في الشتاء ، وذلك راجع لبرودة الجو لا لـكثرة التبخر في الشتاء .

وتقدر كمية العرق في مدة ٢٤ ساعة لشخص سليم وفي جو معتدل لا حار ولا بارد بنحو ٧٥٠ جراماً وتركيبها مبين في الجدول الآتي على وجه التقريب . ففي كل مئة جرام يوجد

٩٩ — جرام ماء
٤ ./. جرام — كلورور الصوديوم
٨ . ر . جرام — بولينا
آثار — فسفات الصوديوم وكلورور البوتاسيوم وأحماض دهنية .

وفي الحالة الطبيعية وفي الجو المعتدل تفرز الـكلى أكبر كمية من الماء الذي تفقده البنية ، وجزء من هذا الماء يفقــد من الرئة ومن الجلد ومع التبرز . وفي الجو البــارد يزيد إفراز الـكلى للماء وتزيد كمية البول إذ يقل العرق . وفي الجو الحــار يكـثر العرق ولذا تقل كمية الماء الذي تفرزه الـكلى فتقل كمية البول .

• يعرق الإنسان في الجو المعتدل الحرارة ولكنه لا يشعر به لأن الملابس تمتصه ويتبخر، وأما في الصيف فإنه يشعر به لكثرته .

• إذا ما انتقل المرء من مكان بارد إلى مكان دافىء كيّف الجسم حرارته لكي تكون ثابتة بواسطة وسائله في زيادة توليد الحرارة ووسائله في زيادة تصريفها ، والعكس بالعكس . وللوصول إلى انتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصريفها وتعاونهما وانسجامهما في الجسم ، يوجد في المخ مركز منظم للحرارة ، ولم يحدد بعد مكانه بالضبط ، ولكنهُ في أحد المواضع الآتية :

الجسم المخطط corpus striatum ، أو المهد البصري ophie thalamus أو الجزء أسفل المهد البصري hypothalamus .

ويعد هذا المركز الأعلى لتنظيم الحرارة، فهناك مراكز مساعدة له في النخاع المستطيل ، وهذه المراكز هي التي تنظم وتكيف الحرارة وفق حاجات البنية فتَنبّه أعضاء توليد الحرارة لتزيد نشاطها فتعطي حرارة أكثر أو تهدىء وظيفتها لتعطي حرارة أقل ، كما تنبه أعضاء تصريف الحرارة من الجسم وتنشطها فتصرف حرارة أكثر أو تهدئها ليكون فقد الحرارة أقل ، ويتبع ذلك زيادة احتياج الانسان للطعام والماء أو نقص احتياجه .

• قلنا إن حركة العضلات وانقباضها تزيد حرارة الجسم، ولذا يحتاج الإنسان في الجو البارد لأن يجري تمرينات عضلية وألعاباً رياضية وسيلةً للتدفئة وتنشيط البنية . والملابس لا تزيد تولد الحرارة وإنما تحفظها من التبخر والتشع بواسطة الجلد لكي لا يفقد المرء حرارة جسمه بسهولة ، ومن يكثر من الملابس في الشتاء ويبقى جالساً في مكانه لا يكون جسمه نشيطاً لأن أعضاءه لا تعمل على إيجاد حرارة فيه . ويلاحظ في الشتاء أن المرء يكثر من الأغطية عند رقاده في الفراش لأن تولد الحرارة أثناء الراحة والنوم يكون أقل بكثير منه أثناء اليقظة والحركة ، فيستعين الانسان بالتدثر للمحافظة على الحرارة . والملابس الصوفية لها هذه الخاصة أكثر من غيرها لضيق مسامها، ولذا تتخذ في البرد وكذا الفراء لكثرة وبرها. وأما ما يتخذ للباس من الأصناف الأخرى مثل الجلد فإنهُ يحفظ الحرارة أكثر لتماسك أجزائه وعدم وجود مسام فيه بعد دبغه ، ويلاحظ في مصر أن بعض من يخشون البرد يضعون ورق الجرائد على صدورهم ويشعرون بدفء من ذلك ، لأن الورق متماسك الأجزاء خال من المسام لا يتخلله الهواء ، مثله كمثل الجلد المدبوغ.

• ويجب الاحتراس من كثرة الملابس لأنها تسبب الخمول وتسهل عند خلعها الإصابة

بالبرد كما أنها تعوق البنية عن المحافظة على حرارة الجسم بنشاطها وعملياتها الفزيولوجية ، ويحدث مثل هذا الضرر من كثرة التدفئة في الغرف ، وقلة الملابس لها عكس هذا الأثر إذا ما كانت في حد المعقول لكي لا تضر . وفي البلاد الحارة كبلادنا يجب ألاَّ تضيق الملابس بحيث تكثر العرق وتعوق تبخره .

والدجاجة ترقد على صغارها وتجمعها حولها لتدفئتها بحرارة جسمها إلى أن يخرج ريشها فتستغنى به .

• ثمة مسألة هامة تحتاج إلى التنبيه ، وهي أنك في فصل البرد إذا دخلت منزلاً يجب أن تخلع رداءك الخارجي (المعطف) وتضعهُ في مكان غير بارد ، ومما يؤسف له أن أكثر الناس يضعون في منازلهم أماكن وضع الرداء بجوار الباب الخارجي ، أي في مكان بارد ، فعند ما يلبسها المرء وهو خارج من الغرفة يشعر ببرودتها وتضايقه هذه البرودة فيحسن أن تخصص للمعاطف مكاناً غير مجاور للباب الخارجي . وعند خروجك من منزل في الشتاء لا تخرج بسرعة من حجرة دافئة إلى برد الشارع مباشرة ، بل يجب الخروج تدريجاً ، أي من حجرة دافئة إلى ردهة أقل منها دفئاً ، ثم تلبس رداءك وتخرج ، لكي لا تتأثر ببرد الشارع . ومن هنا تحسن السيدات صنعاً بكثرة الكلام وطول الحديث في الردهة قبل الخروج ، لأن هذه الفترة تمهد لأجسامهنَّ التكيف لاستقبال تغير الحرارة .

• وفي الصيف يستعين المرء بما يخفف الحرارة ، ومن ذلك قلة التغذية خصوصاً قلة المواد الزلالية والمواد الدهنية وتخفيف الملابس ، ونجد الطبيعة تساعدنا بكثرة العرق الذي بتبخره يمص الحرارة من الجسم فتقل ، ونرى أوعية الجلد الشعرية تتسع فيغزر الدم فيها فيزيد العرق وتفقد الحرارة بواسطة التشعع أيضاً أكثر مما لو كانت الأوعية الشعرية منقبضة . ويلاحظ أن الكلاب يكثر نفسها ويسرع لغزارة الوبر على جسمها . وهذا التنفس الكثير السريع وسيلة من وسائل فقد الحرارة من الجسم بواسطة التبخر من اللسان والفم ومن الرئة ، وترى الكلاب في الصيف أيضاً تبحث عن مكان بارد مثل الرخام أو الحشائش وترقد عليها لفقد الحرارة بتوصيلها من جسمها إلى الأشياء الباردة ، لأن وبر جلدها يمنع تشعع الحرارة ويمنع فقدها بواسطة الجلد ، وليس عند الكلاب غدد عرق مهمة ، فالجلد عندها قليل الفائدة إذا نظرنا اليه من جهة تصريف الحرارة .

« يتبع »

أبو العلاء وبيئته

في أي شيء أطاعها وأي شيء عصاها؟

لادوار مرقص

من أعضاء المجمع العلمي العربي

كانت بيئة أبي العلاء بيئة تطاحن وتنازع له أول وليس له آخر في العقائد الدينية والمذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية، وكان المسلمون منقسمين إلى فرق كثيرة قائمة في وجه أهل السنّة — وهم الفريق الأعظم والأشهر — فمن تلك الفرق الشيعة والمعتزلة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والظاهرية. مع أن الاسلام في عصرنا الحاضر منحصر في ثلاث فرق هي السنية والشيعة والوهابية.

وكان الخليفة العباسي السابع وهو المأمون ابن الخليفة هرون الرشيد علاّمة الخلفاء غير مدافع يطلق العنان لكل واحد من خواص رعيته في ميادين التفكير والبحث والاعتقاد بشأن الدين والعلم والفلسفة. فلما توفي وأسندت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله نهج منهجه في هذا الاطلاق وهذا التسامح، ثم أفضت الخلافة إلى ابن المعتصم الواثق بالله، والمظنون أن منهجه في ذلك كان وسطاً بين الشدة واللين، ثم أعقبه أخوه جعفر المتوكل على الله فشدد النكير والعقاب لكل من خالف أهل السنة منحرفاً نحو التعطيل أو الزندقة وكذلك كان شأن من جاءوا بعده من الخلفاء في التشديد والاستنكار. ومن ثمّ أصبح المفكرون بغير ما يرضي الدولة وسواد الأمة، يتسترون ويتحجبون. واتفق فريق من كبار المفكرين قبل نبوغ أبي العلاء بسبعين أو ثمانين سنة على آراء فلسفية لها تأثير عظيم في عقائد الدين ورسومه وألفوا في السر جمعية منهم سموها جمعية إخوان الصفا وأصدروا على التوالي نيفاً وخمسين بحثاً هي المسماة في أدبنا العربي برسائل إخوان الصفا دسوها بين الناس بطرائق خفية وكانوا يزعمون أن الشريعة دنستها الجهالات لأنها أدخلت عليها ما ليس منها. وإنما يمكن إصلاحها وردها إلى الطهارة باستنجاد الفلسفة اليونانية بما لا يخالف جوهر الدين الاسلامي من هذه الفلسفة. وفي رسائلهم فندوا وعابوا أشياء كثيرة في السياسة. وقد وافقهم على آرائهم

ومذهبهم فريق من خاصة الناس وخالفهم فيه فريق آخر، ولا غرو فان مطالبهم ومباحثهم العويصة من جهة الذات الالهية والقضاء والقدر والثواب والعقاب وقدم العالم وحدوثه وما جاور هذه الموضوعات كانت وما زالت مثار الجدل والمناظرة والحيرة والشك من أوائل نشأة العلم والفلسفة إلى أيامنا الحاضرة. ومن علماء تلك المؤسسة الفلسفية جمعية إخوان الصفا الذين اتصلت بنا أسماؤهم زائد بن رفاعة ومحمد البستي وأبو الحسن وأبو أحمد. وكان أصحابها يكتمون أسماؤهم خوفاً من أن يصيبهم أذى أو ضيم من قبل الدولة أو قبل فئات من الشعب.

فلما ظهر أبو العلاء وفي رأسه عقل جبار وبين جنبيه نفس جريئة طموح واطلع على ذلك المعترك الديني العلمي الفلسفي في ميادين الفرق الدينية وفي جمعية إخوان الصفا وفي اختلاف نظريات العمران والاجتماع والسياسة — استهوته هذه المباحث وكان لها عليه وقع بعيد الأثر فجعلها دأبه وديدنه وبدرت منه بوادر أقوال وآراء يستنكرها الأكثرون. وما كان أسرع عودته عنها إلى ما نشأ عليه في حجر أبويه من عقائد ومبادئ. وسأورد ذلك بايضاح.

ومرَّ أبو العلاء في إحدى رحلاته بمدينتنا اللاذقية هذه وكانت أعظم وأجل بكثير مما هي عليه الآن. وفي أثناء إقامته هنا — ولا أعلم مدتها — عرف راهباً يونانيًّا من أهل الذكاء والعلم وهو من رهبان دير مار جرجس المبني على هضبة القاروس، وإلى جانب الدير كنيسة باسم هذا القديس الشهيد سماها الناس حينئذٍ «كنيسة نصف البلد» وهي تسمية تدل دلالة واضحة على عظم المدينة واتساعها في عصر أبي العلاء. والظاهر أن الراهب اليوناني كان يحسن أيضاً التعبير باللسان العربي، فكلفه أبو العلاء أن يطلعه على أشياء في الفلسفة اليونانية ففعل، ولا نعلم أي ناحية فلسفية اختارها أبو العلاء: أفلسفة ما وراءَ المادة أم فلسفة القوى العقلية أم فلسفة الاجتماع ونظم العمران أم ماذا؟ وذكر أبو العلاء اللاذقية ذكراً كنا نود وروده بغير السياق الذي اختاره. قال:

في اللاذقيـة ضجّـة ما بين أحمد والمسيحْ
هذا بناقوس يد قُّ وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعظّمُ دينه ياليت شعري ما الصحيح

ولو كنت إلى جانبه يوم نطق بهذه الأبيات لقلت له: رويدك يا أستاذنا وموضع حبنا وإكرامنا. إن ضجة الخلاف والمشادة لم تقم قط بين أحمد والمسيح بل بين تبّاع هذا وتباع ذاك، فقد أوصلتهم طرق التعليل والتأويل والاطراد والتمريج إلى اختلافات ومهاوٍ

سحيقة مع بقاء أحمد والمسيح على اتفاق تام في جوهر العقيدة والمبدإ . وكيف يمكن أن يقع اختلاف جدي ونفور بين رجال الله وأصفيائه عزّ وجلّ ؟

ولما مرّ أبو العلاء بطرابلس وكانت فيها مكتبة عامرة كلف بعض الناس أن يقرأ له شيئاً من محتوياتها على حسب اختيار المكلف ، ففعل وأضاف ما استمرأه ذهنه منها إلى ما عنده من علم وأدب .

***

وكما أثرت في أبي العلاء بيئته باستدراجه إلى قضايا الدين الجدلية أثرت فيه كذلك باستدراجه إلى زخرف الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية ولزوم ما لا يلزم مع ما يجاور هذه الصور من طول الاستطرادات وعبارات الدعاء والمجاملة ، فإن أدبهُ نظماً ونثراً ممتلئ إلى حد البطنة بهذه الأغذية وبينها ما لا يخلو من قبول ودسم وما هو تافه تماماً ليس له طعم ولا يرجى من وراء هضمه وتمثيله مدد وعافية . وكذلك كان مذهب أدباء ذلك العصر وما تقدمه وتخلف عنه . ومن مشاهير أصحاب هذه الطريقة أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبو منصور الثعالبي والوزير المهلبي والحريري والصابىء وابن العميد والصاحب بن عبّاد . وكل هؤلاء كان إنشاؤهم ناصعاً جميلاً دالاً على مقدرة عجيبة وذخيرة وافرة من أوضاع اللغة ومجازاتها . ولكننا لا نشك أنهم كلهم وبينهم أبو العلاء المعري لو لم يتقيدوا بهذه الطريقة التزويقية لجاء إنشاؤهم أجمل وأمتن ولما عابه ما في بعضه من أثر التكلف والاعنات والاسهاب الممل . ونريد بذلك الاشارة إلى طريقة إنشائية غير طريقتهم ، طريقة الحرص على الرشاقة في مواضعها والجزالة في مواضعها بغير تسجيع وتصريع وترصيع إلاّ ما جاء من ذلك عفو الخاطر . هكذا كان مذهب فحول إنشاء آخرين نبغوا في صدر الاسلام قبل من أوردنا أسماءهم ومنهم عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة الكاتب والجاحظ وابن المقفع وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفره والحجاج بن يوسف الثقفي . وأما من ظهروا بعد أولئك فمن أشهرهم ابن خلدون وجلال الدين السيوطي . وبديهي أن ديوان اللزوميات لأبي العلاء لم يظهر على تلك الصورة إلاّ مجاراة لذلك المذهب في البديع اللفظي .

وأطاع أبو العلاء أيضاً بيئته في مظهر آخر من مظاهر الأدب العربي لم يكن عصره يستهجنهُ أو يستغربه ولا ما تقدمه وتخلف عنهُ من عصور القدماء والمولدين . والمراد به باب

التمدح والفخر، فقد دخله أبو العلاء صريحاً فصيحاً. وأظن ظنّاً راجحاً يقرب من اليقين أنهُ تعمد الافتخار بنفسه ردّاً ودحضاً لما كان يلمحه من مساعي خصومه وحساده وفلتات أقلامهم وألسنتهم ضده. وكان يعلم أن بين رجال العلم والأدب جمهوراً ينتصرون له ويشدون أزره إذا رأوا ضرورة لمؤازرته. ولولا هذا الحافز الذي يعذره عليه كل عاقل عادل لما خرج قيد شبر عن شرط الدعة والتواضع كما هو المعهود في أمثاله من العلماء الأثبات.

ومما يروى عن أفلاطون الحكيم اليوناني الشهير تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أنه قال: قضيت حياتي في طلب العلم والشيء الوحيد الذي علمته إلى اليوم هو أني لا أعلم شيئاً. ويروى عن أبي عبيدة العلامة الراوية العربي في صدر الدولة العباسية أن شابّاً سأله مسألة لغوية فقال له أبو عبيدة: لا أدري. فارتاب الشاب في صدق جوابه وظنه يحاول أن يضن عليه بالفائدة، فقال له: كيف تقول في هذه المسألة لا أدري وإليك تضرب آباط الابل من مشارق البلاد ومغاربها انتجاعاً لفضلك، وكان في أبي عبيدة حدة طبع، وحدة لسان فأجابه: ويحك لو كان لأمك بعر بقدر ما لا أدري لاستغنت. وكان من العاملين في دار الحكمة ببغداد على عهد الخليفة المأمون عالم وقور طاعن في السن، فسأله أحدهم مسألة أدبية أو فقهية فقال: لا أدري، فاستغرب الجواب وقال له: إن أمير المؤمنين يجري عليك من الخيرات والأرزاق كل شهر جراية عالمين ثم تسأل سؤالاً واحداً فتقول لا أدري، والله إن هذا لمن العجب العجاب. فأجابه بلين وتؤدة: «يا بني إن أمير المؤمنين أيده الله إنما يجري عليّ خيراته جزاءً لي على ما أدري ولو كانت عطاياه جزاءً على ما لا أدري لنفدت خزائنه قبل أن ينفد جانب يسير مما لا أدري» ولما بلغت مقالته المأمون قال: هذا هو العالم الحق. ثم زاد في إكرامه ورعايته.

هذا شأن العلماء الناضجين في التواضع وإنكار الذات، ولا شك أن أبا العلاء أحد الممتازين بينهم. ولكن هؤلاء المتواضعين إذا تعمد متعمد أن يتنقصهم أو يهينهم ظهرت فيهم أنفة وشمم لقمع كل عدو ومفترٍ وكبح جماحه. وإلى هذا الناموس الاجتماعي اشار الشاعر بقوله:

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن أهنت معلما

ولعلّ هذا الناموس الاجتماعي فكر فيه أب عاقل حين أوصى ابنه وقال له في جملة وصيته: «يا بنيّ لا تمار العلماء فيمقتوك» والمماراة هي سوء الجدل أو إدخال العناد

والمماحكة في الجدل . ولا يخرج عن هذا الصدد ما رواه بعضهم من أن شابًّا مغروراً بنفسه كان يعمل في حقل الأدب فنظم أبياتاً وأسمعها أحد رجال العلم واللغة فطرق أذن العالم منها لفظ استنكره وسأل الناظم عنه سؤال متعجب : ما الذي تريد به ؟ فأجابه الشاب مكابراً « هذا حرف في العربية لم يبلغك » فابتسم الشيخ وقال له : « يا ابن أخي لا خير لك في مالم يبلغني منها » يريد أنه لا يفوته منها شيء .

وهذه الدعوى ما كان ليظهرها لو لم يلجئه اليها الشاب بغروره وغطرسته . أفلا يظن القارىء مثلي أن أمثال هـذه الدواعي هي التي ساقت أبا العلاء إلى تمدحه وافتخاره بنفسه ولا سيما في قصيدة لاميّة له مشهورة ؟ ومنها قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية يصدق واشٍ أو يخيّب سائل
يفاخر يومي فيّ أمسي تطولا وتحسد أسحاري علي الأصائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

إلى أن يقول في أواخر القصيدة بلهجةٍ حادّة تدل على التعريض مع منتهى السخط والاشمئزاز مما يؤيد رأينا في الدواعي التي دعت الناظم إلى هذا التمدح والافتخار :

إذا باهتِ الأرض السماءَ سفاهةً وعيّر قسًّا بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل
فياموتُ زر إن الحياة ذميمةٌ ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازلُ

ثارت ثائرة أبي العلاء لذلك الوضع المعكوس في المجتمع البشري لعهده مما أشار اليه بهذه الاستعارات البليغة، فما قول القراء فيه رحمه الله وغفر لنا جميعاً لو أدرك عهدنا الحاضر وشاهد ما نشاهد وأحس بما نحس به من عجائب الشواذ وغرائب المتناقضات.

***

ومن تأثير بيئة أبي العلاء عليه ما رآه حواليه من مفاسد الناس ونفاقهم ولؤمهم فأساء ظنهُ فيهم وفي الدنيا التي احتوتهم، ومن ثمّ نما فيه خلق التشاؤم وأعراض السوداوية وكانا قد اختمرا في نفسه بما أصابه من العمى في طفولته ثم بفقده أبويه، ولما فقد الوالد منهما لم يكن الولد إلاّ صبيًّا قاصراً في الرابعة عشرة من عمره . وأما أمه فتوفيت وقد نيف على الثلاثين ولاجلها أسرع في ترك بغداد عائداً إلى المعرة لكي يودعها قبل موتها فلم يبلغها إلاّ

وهي في قبرها . كل هذه الحوادث المؤلمة توالت على أبي العلاء فطبعت أقواله بطابع الكآبة البالغة حد اليأس .

فرغنا من أهم ما أثرت به البيئة في أبي العلاء ، وحان لنا أن نلتفت إلى ما عصاها فيه :

كان الغالب على بيئة أبي العلاء رغد المعيشة ورفاهيتها ومباهاة الأقران بكثير من كماليات الحياة . وهذه المظاهر الساطعة الخلابة لم تجد لها أصغر موقع ولا أقل منتجع في نفس شاعرنا العظيم وفيلسوفنا الحقيقيّ بل تنكب طريقها واكتفى له بمستغل له صغير ورثه عن أبيه لا يزيد دخله السنوي على ثمانين ديناراً مما يساوي بالتقريب ٣٥ ليرة ذهبية من نقود أيامنا الحاضرة، وهذا المبلغ كان ينفقه على نفسه وعلى خادم له خاصٍّ في معيشة بسيطة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومأوى ، وكان يغلب على طعامه العدس المطبوخ وقد تعمد تجنب اللحوم بعد ما اجتاز الأربعين من العمر عاملاً برأي فلسفي كان يقول به ، وقد شاع يومئذٍ بين فلاسفة الهند ومؤداه أن الانسان حيوان ناطق لا يجوز له سلب حياة غيره لكي يغذي حياته ، بل يجدر به أن يكتفي بالثمار والنبات .

ولعلّ أصدق صورة ذهنية تنطبق على أبي العلاء في استقامته وثقته بنفسه واحتياطه من شرور الناس أبيات للطغرائي في لاميته المشهورة وهي هذه :

وشان صدقك بين الناس كذبهُمُ   وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل
أعدى عدوك أوفى من وثقت بهِ   فحاذر الناس واصحبهم على دخلِ
وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل في الدنيا على رجلِ

وأوضح خلة عصى بها أبو العلاء بيئته هي الأنفة وعزة النفس، وكانت البيئة ممتلئة في صميمها وزواياها برجال التملق والتزلف والنفاق استدراراً للمال من أيدي الملوك والأمراء والأعيان والأغنياء ، وهذه الخلة هي أخت شقيقة لما ذكرناه من قناعته ورضاه بقشف العيش ، ومما يروقنا ذكره ويعزينا بعض التعزية عن مفاسد الزمان وأهل الزمان أن جماعة من رجالات العرب كانوا على هذه الشاكلة ومنهم الامام الشافعي القائل :

عليّ ثياب لو تباع جميعها   بفلسٍ لكان الفلس منهنّ أكثرا
وفيهنّ نفس لو تقاس بفضلها   نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

والقاضي أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني وهو القائل :

يقولون لي فيك انقباض وإنما   رأوا رجلاً عن موطن الذل أحجما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى   ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وفي موضوع الأباء وعزة النفس تحضرني خاطرة سديدة من خواطر الأدب الفرنسي وهي للكاتب الفرنسي لاروشفيكو إذا صدقتني الذاكرة . قال : « ليس من الويل أن تحسن إلى لئيم فيبخسك حقك ويجحد معروفك . ولكن الويل كل الويل أن تحتاج إلى لئيم يسعفك إسعافاً خفيفاً ثم يمن عليك طول حياتك منـًّا لا تحمله أرض ولا سماء »

***

بقي علينا أن نذكر شيمة واحدة من الشيم الكريمة التي خالف بها أبو العلاء بيئته بل خالف معظم ما عهدناه من البشر في كل مكان وكل زمان . وأظن هذه الشيمة تفوق جميع الشيم في نبلها وسمو قدرها ، وأريد بها شيمة الأثرة أو إنكار الذات . فإن أبا العلاء على ما هو عليه من ضعف ثقته بالناس وشدة استيائه من مفاسدهم كان قلبه الكبير ينطوي على ود صحيح لهم وإرادة كل خير وبركة تشملهم ، ومما يدل على شفقته الفطرية عدم استحلاله لحم طير أو حيوان أو سمك لأجل تغذية الانسان . ثم إذا رأينا الأمير أبا فراس الحمداني يقول ولو في معرض نسيب وتشبيب :

معللتي بالوصل والموت دونه   إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

وبهاء الدين زهيراً المصري يقول :

وإذا ما متُّ من ظمإ   لاجرى من بعدي النيلُ

رأينا أبا العلاء المعري وكان عصره بين عصريهما يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء لو رزقه الله ثروة واسعة ومع نفوذه الأدبي سطوة حكم رسمي جاء بالشيء الكثير من أعمال الخير ومشروعات الاصلاح : وهذه منية تشعرنا بصدق الشعور في قول من قال :

كفى حزناً أن الكريم مقتَّر   عليه ولا معروف عند بخيل

اللاذقية (سورية)

مياه عين الفيجة *

﴿ لمحة تاريخية ﴾ كانت مياه الفيجة في أيام الرومان كما كانت في أيام العرب موزعة بواسطة قناة محفورة في الصخور، مارة على سفح الجبل في وادي بَرَدَى من نبع الفيجة حتى أعلى نقطة في جي الصالحية ، ولا تزال آثار هذه القناة موجودة إلى يومنا هذا ، ولكنها مخربة في أكثر أقسامها . وهذه القناة كانت تسقي القرى الواقعة بين نبع الفيجة ومدينة دمشق ، وما زاد منها بعد ما تأخذ مدينة دمشق حاجتها يتخذ لأعمال الري . وكان الاهمال سبب تخريب هذه القناة إذ أن صيانتها وترميمها وإصلاحاتها كانت تقوم بها ، على ما يظهر، لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة كري الأنهر المتبعة الآن في غوطة دمشق ، ولذلك صارت عرضة للتخريب بسبب هجرها وعدم العناية بها .

وكذلك بقيت مدينة دمشق مدة طويلة محرومة المياه النقية . وكانت تستعمل مياه الأنهر التي كانت موزعة على البيوت بشكل طوالع وبحرات وجداول توزيعاً فنيًّا دقيقاً ، فتستقي البيوت منها حاجاتها للشرب والاستعمال باستمرار وغزارة . إلاَّ أنها كانت غير نقية ، ولذلك كانت المدينة دوماً عرضة للأمراض والأوبئة . لهذه الأسباب لم يكن بد من وجدان مياه نظيفة صافية لأجل تأمين شرب الأهلين ولانقاذ دمشق من الأمراض والأوبئة. وعلى ذلك فكرت الحكومات منذ خمسين سنة ونيف في جلب كمية كافية من نبع الفيجة ، وقد تأسس في ذلك الحين مشروع لإسالة مياه الفيجة بواسطة قساطل حديدية . وتم تنفيذ المشروع في زمن الوالي التركي المشهور ناظم باشا . وكانت المياه النقية المسحوبة تبلغ ألفي متر مكعب وُزعت على ما يقرب من خمسمئة سبيل كانت تسيل في ساعات معينة في الصباح والمساء ، وبذلك أُنقذت المدينة من تفشي الأوبئة .

﴿ تأسيس مشروع الفيجة العام وتوزيعه على البيوت ﴾ قام بدرس هذا المشروع بعض رجالات دمشق في عام ١٩٢٢ إذ كانت حاجة العمران تقضي بتوسع المدينة . ولما كانت المياه الموجودة لا تكفي للقيام بانشاء أبنية حديثة فكروا في جلب كميات كافية من نبع

---

* استندنا في كتابة هذا البحث الى استطلاع خاص، فضلا عن بيان بعث به الينا السيد خالد سعيد الحكيم المهندس الدمشقي

الفيجة الذي يبعد عن دمشق ثلاثة وعشرين كيلومتراً فهو أقرب الينابيع إلى المدينة، ومياهه غزيرة ونقية من وجهة التحليل الجرثومي والكيميائي وكان قسم من مياهه قد اسيل في أنابيب ووزع بواسطة الاسالة. فتقرر في ذلك التاريخ تأسيس لجنة باسم «لجنة مياه عين الفيجة» في سبيل درس مشروع جديد لجلب مقادير كافية، تمهيداً للتوسع العمراني، لأن الكمية الموزعة بواسطة الاسالة عادت لا تكفي لري الأهلين. فتألفت عندئذٍ في دمشق جمعية بالاشتراك مع غرفة التجارة لتهيئة المشروع والدعوة اليه. وإذ كان هذا المشروع من المشروعات العامة اتفقت جمعية ملاكي الماء مع بلدية دمشق على تنفيذه بعد أخذ امتيازه من الحكومة، وذلك بالرغم من وجود شركات أجنبية كانت تسعى إلى أخذ الامتياز على قاعدة الاستثمار. وفي ٢٣ شباط (فبراير) من عام ١٩٢٤ عقدت اتفاقية بين حكومة دمشق ورئيس بلديتها نصت على كيفية العمل وعلى إدارة المشروع من قبل لجنة مزدوجة. ولقد كان لمعالي لطفي بك الحفار فضل الظفر بامتياز المشروع باسم مدينة دمشق، وقد بذل الكثير في سبيل تحقيق المشروع سنين طويلة ثم قام بالاشراف على أعماله بهمة عالية وإخلاص.

وفي الخامس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٢٥ عُرض المشروع للالتزام. فتقدمت من مختلف بلاد العالم شركات قديرة من الجهتين المالية والفنية للمناقصة، بعد دراسة المشروع دراسة فنية، ثم نالت الالتزام إحدى الشركات الكبرى. وبوشر العمل في أول أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٢٥.

وقد كان الرأي الأول سحب الماء بوساطة أنابيب حديدية، كما جرى من قبل. ولما كانت تكاليف الأنابيب الحديدية تقارب النفقات اللازمة لإنشاء قناة في شكل نفق أوثرت الطريقة الثانية لجملة أسباب فنية. أهمها إمكان جلب مقادير كافية من المياه لسدّ حاجة دمشق وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح، وبذلك تقل نفقات الاستثمار علاوة على أنه يستفاد من حجم قناة النفق لتأسيس شلال للماء. وبعد أن تقرر إنشاء القناة بدئ العمل في آخر عام ١٩٢٥. وقد بلغ طول القناة المذكورة ثمانية عشر كيلو متراً، لأن القناة طريقها يقرب من الخط المستقيم، وهي مؤلفة من أربعين نفقاً وثلاث قنوات مبنية بالأسمنت المسلح وأربعة جسور يختلف طولها بين ١٥ و ٥٠ متراً بنيت بالأسمنت المسلح ثم مماصّ (سيفون) كبير مبني بالأسمنت المسلح طوله أربعمئة متر في وادي قرية دُمَّر التي تبعد عن دمشق سبعة كيلومترات. وعمق الوادي تحت سطح النفق يبلغ أربعين متراً. وقد بني المماصّ (السيفون) في شكل أنبوب بمقطع دائري قطره متر واحد من الداخل.

أما مقادير المياه التي تسيل في هذه القناة فتبلغ ثلاثة آلاف لتر في الثانية . تأخذ المدينة منها خمسمئة لتر، أما الباقي وقدره ألفان وخمسمئة لتر فيَصبُّ في شلال الماء المنشأ لبناء معمل كهربيّ في موقع «الهامة» لإضاءة المدينة ، لأن الشلالات القديمة صارت لا تفي بالإنارة .

وقد بلغت نفقات الأعمال الإنشائية ٢٧٠ مائتين وسبعين ألف ليرة عثمانية ذهبية. وقد انتهى المشروع في عام ١٩٣٢ ، فأُسيلت المياه في بيوت المدينة .

وأما طريقة التوزيع فهي طريقة لا تشابه الطرق الجارية في سائر المدن العالمية ، لأن المشتركين في دمشق يملكون أمتاراً من الماء ويدفعون قيمتها لأجل تأمين رأس مال المشروع ، وهم يستمتعون بالماء في بيوتهم ويدفعون عنه رسماً سنويًّا في رأس كل سنة لقاء نفقات الترميم والإصلاح والاستثمار . وهذا الرسم السنوي يختلف في كل سنة إذ يزيد أو ينقص بنسبة النفقات السنوية الضرورية والاستثمار ، وبنسبة نصف المتر أو متر الماء الذي يكون قد اشترك فيه المشترك وسحبه إلى داره . وتوزَّع المياه المشترَك فيها بطريق المهارسة حصراً لمقادير الماء المسحوبة . وبعض أهل دمشق يطلبون الاشتراك بطريق العداد ، وعددهم لا يزيد على ألف مشترك إلى الآن . ويبلغ مجموع المشتركين ٣٠٠٠ مشترك ، منهم المقيمون بالمناطق العسكرية ، واشتراك هؤلاء نحو ٥٧٥٠ متراً مكعباً . ولم يدفع الأهلون حتى عام ١٩٤١ من مجموع الـ ٢٧٠ الف ليرة عثمانية ، وهي مقدار النفقات ، سوى مبلغ ١٣٠ ألف ليرة ذهبية ، وسُدد الفرق بفضل اللجنة بوساطة قروض عقدت مع الحكومة التي لمست الحاجة إلى إتمام هذا المشروع الحيوي للمدينة والذي ينفذ بعناية من الوجهة الفنية وبانتظام من الوجهة الادارية . وقد وُفقت اللجنة لإلغاء جميع الفوائد التي نصت عليها عقود الدين مع الحكومة ودفع القسم الكبير من الدين أو قيمة القروض التي اقترضتها اللجنة من الحكومة لقاء ضمانات كبيرة . ثم قُسِّطت بقية هذا الدين على مدد محددة ينتهي جميع الدين بانتهائها .

ثم أنشئت دار للمصلحة في أشرف بقعة من المدينة ، وهي آية من آيات الطراز الحديث في صورته العربية من حيث البناء والنقش والزخرفة والأثاث ، ولا يكاد يماثلها بناء في جميع الشرق العربي . وأما الذي أبلغها هذه الروعة الفنية السليمة فهو المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان ، فقد قام بمعاونة أولاده بصناعة هذه التحفة قيام الحاذق العارف بدقائق الفنّ العربي السليم .

كانت والعقل الجرماني الحديث

نقله باختصار وتصرف عبد الكريم الحمود

عن مقال بالانجليزية للاستاذ ياجست

لقد عشت عشر سنوات مع فلسفة « كانْت » Kant . وظلَّت في نفس الوقت بيتي وسجني ، تنفستها كتنفسي الهواء ، وإني أشكّ في أن أحداً لا يعمل عملي هذا يستطيع أن يفهم عصرنا وما فيه من رذائل وفضائل . فلنشكر عبقرية كانتْ التي أظهرت في ما اوحت إليه حياةَ الغرب المتسقة في قالب ميكانيكي ثم قوتّها وراء هذه المثالية الميكانيكية التي كيفت التاريخ الأوربي منذ عصر النهضة .

على أن تكون « كانتيّـاً » مخلصاً مدة طويلة هو من الافتراضات الواجبة ، فذلك يمهد السبيل إلى انقطاعك عن فلسفة كانت ، إذ لا خلاص من سيطرة كانت الفلسفية إلاّ بالخضوع لها زمناً . هذا ، وإذا أردنا أن نبني روحاً جديدة في عالم الفكر العالمي الحديث ، فلابدّ لنا من أن نعيش مع كانت ما دام هو الحجر الأساسي في بناء الفكر العالمي الحديث وما دامت الفلسفات الحديثة تأخذه بعين الاعتبار عند ما تبحث مشكلاتها الأساسية .

منذ أكثر من قرن ظهرت فلسفة كانت في مكان معين من التاريخ الأوربي ، وذلك حين تنفس عهد « الركوكو » النفس الأخير وانفجر العصر الرومانتيكي . هذه الساعة البهيجة الجليلة يمكنني ان القبها بكل شجاعة : الذروة العليا في التاريخ الأوربي .

لا يسأل كانت ما هي الحقيقة وما هي الأشياء وما هذا العمل ؟ بل يسأل عن إمكان معرفة الأشياء والعمل . لقد ضرب كانت بالأشياء عرض الحائط وانطوى على نفسه هذا الانطواء العميق الذي لم يكن جديداً في عصر كانت ، بل كان من خصائص عصر النهضة على العموم . وما كانت في الواقع إلاّ الفيلسوف الذي ألبس هذا الاهمال للاشياء صورتَـه النهائية . وبهذا نرى كانت يهمل المشكلة « الميتافيزقية » للوجود وينصرف جهده إلى مشكلة المعرفة . فهو لم يهتم بكونِهِ يعرف ، ولكنه اهتمّ بكونه : هل يعرف . وبكلمة أخرى ، انصرف كانتْ إلى إمكان المعرفة .

***

وإذا نظرنا إلى الفلسفة المعـاصرة نراها تجعل من الفلسفة ابتـداءً من « كانت » علماً

للمعرفة ، فهي تصرّح بأنهُ قبل أن نعرف أي شيء ، علينا أن نتثبت أولاً من إمكان المعرفة ، وهذا الأسلوب الجديد في الفلسفة لم يقتصر على إدخال الشك في عقل الرجل العصري فحسب ، بل منذ ديكارت Descartes لم نأل جهداً في اعتبار الأمر الطبيعي والمعقول لدى الفلسفة أن تبدأ في توضيح طريق المعرفة المؤدية إلى الحقيقة .

وهنالك زمان لم يكن فيه شعور الفيلسوف مماثلاً لشعور فيلسوفنا الحديث، ففلسفة اليونان وفلسفة القرون الوسطى لم تكن علماً للمعرفة بل علماً للوجود . وان علم المعرفة كان بالنسبة إليهم أمراً ثانويًّا ، ولهذا نرى أن هذه النزعة في الروح المعاصرة التي تحفزنا إلى السؤال عن إمكان وجود حقيقة وعن طريق معرفتها غريبة عن عقلية اليونان والقرون الوسطى .

إن أفلاطون والقديس أغسطينس قريبان من الروح المعاصرة ولكنهما لا يشكان أبداً في إمكان معرفة الحقيقة . والواقع أن أفلاطون اطمأن بقوة العقل كل الاطمئنان حتى إنه تعجب كثيراً من جواز وقوع الخطأ .

وهنا لا بد أن معترضاً يقول بأن أفلاطون قد كرَّر كثيراً اثارة مشكلة المعرفة مستعملاً نفس الألفاظ التي استعملها الفلاسفة المحدثون . ولكن هذه الاثارة والتكرار فيهما شيء ظاهري لا يفيد إلاَّ البعد بين تفكيره وتفكيرنا الحديث . فديكارت وهيوم Hume وكانت يسألون : هل لدينا معرفة صحيحة بشيء ما ، ولكن أفلاطون لا يشك ولو لحظة واحدة في قدرتنا على معرفة أشياء كثيرة ، وهو وإن أنكر معرفة الأشياء الجزئية لم يشك مطلقاً في معرفة الكليات أو الفكر كالعدالة والحب ، وبكلمة أخرى : يثير أفلاطون مشكلة المعرفة لا لأنهُ يعتقد مقدماً أن العقل البشري قاصر عن المعرفة ولكن ليتثبت هل هناك موضوعات للمعرفة اليقينية .

***

هذه الملاحظات مع ما فيها من التشابه الظاهري هي في الواقع الحد الفاصل بين الروح اليونانية والقرون الوسطى من جهة ، والروح الحديثة من جهة أخرى . وهذا الفاصل قد خلق بدوره نظريتين مختلفتين للحياة . فيبدأ القدماء من الشعور بالثقة في هذا العالم ونظامه ولكن الرجل العصري يبدأ بعدم الثقة في هذا العالم ، ويعبر كانت عن هذا بقوله « إن العالم في تشويش وسوء انتظام» . على أنهُ لمن الخطأ أن نذكر كسابق لهذه النزعة العصرية نزعة المشككين عند اليونان ، ونحن وإن كنَّا لا ننكر أن التفكير الحديث قد تعلَّم من اليونان

المشككين كثيراً واستعمل أسلحتهم مراراً لنرى أن هناك فرقاً أساسياً بين عصر الشك الكلاسيكي وعصر الفلسفة النقدية الحديثة . فالمشككون عند اليونان لم يبتدئوا بالشك بل توصلوا إليه، على حين الفكر الحديث يبتدئ بالشك .

ليس الشك بالأمر المهم كما يقول « كانت » وذلك لأن أول شاك كبير عصري ، وهو ديكارت ، قد توصل إلى حقيقة ذاتية بعد أن تساءل عن فكرة القدماء عن الحقيقة ، ولهذا فكل الجدل حول الشك في العصر اليوناني أصبح لا يجدي شيئاً بعد أن توصلنا إلى حقيقة ذاتية، ولكن ذلك لا يمنعنا القول بأن روح الشك في العصر اليوناني قريبة إلى حدّ ما من روح العصر الحاضر . ولهذا السبب نجد روح عصر الشك عند اليونان يقف موقفاً مضاداً للروح العامة، حتى إن اليونان لخوفهم من هذه الفئة لقبوها بالوساوسة .

وليس أدل على معنى هذا الخوف الذي يعتري اليونان من هذه الفئة من كلمة « الشك ». فكلمة الشك عند اليونان معناها « الازدواج » ولكن اليونان يكرهون هذا الازدواج ويميلون إلى الوحدة .

إن الشك الذي كان من البطولة الوصولُ إليه أصبح ظاهرة طبيعية لدى الروح الحديثة «فكانت» الذي يمثل هذه الظاهرة بأجمعها لم يكتف باتخاذ الحذر طريقة فلسفية، بل جعل من الفلسفة علماً له . ولهذا فإن الفلسفة النقدية الحديثة ليست إلاّ العلم الذي لا يهتم بأن يعرف بل يهتم بأن يتجنب الخطأ . فالفلسفة القديمة — فلسفة اليونان والقرون الوسطى — هي ثمرة الثقة والشعور بالاطمئنان، ولهذا نرى أن مجتمعها يتجسد في الفارس المغامر في حروبه، بعكس الفلسفة الحديثة التي أنتجها عدم الثقة والحذر والتي هي من خلق رجل الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي . إن رجل الطبقة الوسطى هذا قد تغلب على المغامر وعلى الروح الحربية القديمة وجعل من نفسه نموذجاً لمجتمعه . ولكنهُ بفقدان هذه الروح المحاربة وبسبب حذره اضطرَّ إلى السعي وراء الطمأنينة بالتشريع والاقتصاد وسيلةً لتجنب ما يحذره ويخافه .

وليست فلسفة كانتْ النقدية إلاّ صورة لروح الطبقة الوسطى التي تحكمت في مصير أوربة منذ عصر النهضة، والتي سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور الرأسمالية . ولهذا نرى أن تشبع كانت بالفلسفة الانكليزية التي كانت تمثل الصورة المثلى لتطور الفلسفة النقدية والرأسمالية في إنكلترة ليس من قبيل المصادفة . على أن ذلك لا يعني أن هذه الملاحظات التي أبديتها تفيد الاعتقاد « بمذهب المادية التاريخية » . أنا لا أقول إن الفلسفة النقدية هي

من نتاج النظام الرأسمالي الحديث ولكني أقول إن الفلسفة النقدية والرأسمالية هما من خلق هذا الإنسان الذي يحركه الحذر والشك . إن أية قيمة تقيمها لأي عمل ثقافي يجب أن تسبق بفحص الظاهرة « البيولوجية » أعني نوع الشخص الذي أنتج العمل .

***

على أن هذه الملاحظات على ما فيها من التعدد لها قيمتها في معرفتنا لأنفسنا . فلأي نوع ينتمي رجلنا المعاصر ، هل هو متمم لحذر رجل الطبقة الوسطى ؟ الجواب عن ذلك يتطلب تحليل الفلسفة المعاصرة، وهو عمل يعجزنا ما دامت الفلسفة المعاصرة لا تزال في طور النمو ولم تكتمل بعد . إلاّ أن هناك ملاحظة في وسعنا الإشارة إليها دون أن نتحمل خطر التبعة ، أعني أن الفلسفة المعاصرة تعتقد أن الشك ليس بالطريق الصالح وأن الرجل الحذر في تفكيره في استطاعته التخلص من ذكائه او براعته . إن الانسان لا يستطيع أن يتوصل إلى طريق المعرفة قبل معرفة الحقيقة ،لأن المعرفة تتضمن معرفة طريق الحقيقة ، وبعبارة أخرى : إن الثقة أصلح من الحذر أو الشك .

ليس الحذر وحده الذي يميز فلسفة كانت . فديكارت وهيوم كانا حذرين ، ومع ذلك تختلف فلسفتهما كل الاختلاف عن فلسفة « كانت » ، وإن هذا الاختلاف ناتج عن الطريقة التي بها هدّأوا حذرهم وشكهم والاعتقادات التي نتجت عن هذه التهدئة ، لهذا نرى الروح الجرمانية وروح حوض البحر المتوسط تختلفان أكثر مما نعتقد، لأن هاتين الروحين تبتدئان من تجارب متناقضة كل التناقض . فساعةَ تفيق الروح الجرمانية لا ترى في هذا العالم إلاّ نفسها : الفرد منطوٍ على نفسه وليس له أي علاقة بفرد آخر . وإن روح الفرد الجرماني لا تشعر إلاّ بنفسها ، وإن شعرت بالمجتمع الذي حولها فلا تشعر به إلا كنظام أعمى أو كموج يلطم شاطىء جزيرتها .

على أن فرد حوض البحر المتوسط يفيق وهو في سوق البيع ، وهو منذ الولادة رجل الساحات . وأول مؤثر فيه هو الحياة الاجتماعية، فتجاربه في « أنت ، هي ، الشعب ، الأشجار ، النجوم » تسبق معرفته لنفسه . إن الشعور بالوحدة أجنبيّ عنه ، وإذا أراده وجب عليه أن يخلقه ويحارب من أجله ، وإن حصل عليه فلا يكون ذلك إلاّ من قبيل الصناعة والتمثيل . إن روح حوض البحر المتوسط في بنائها فلسفتها تعتمد على العالم الخارجي وتعتبر الأشياء الحسية صورة الحقيقة ، ولهذا هي زاهدة في قيمة وجودها بالنسبة إلى المنزلة التي تُنزل بها الأشياء والناس . إن هذه الروح لا تعي إلاّ سطحية « الأنانة »(١) حيث الأشياء تترك

---

(١) قولك : أنا (التحرير)

طابعها، وذلك بعكس الروح الجرمانية التي تستدبر العالم الخارجي وتنطوي على وليجة نفسها. فالجرماني لا يرى العالم مباشرة بل يراه من طريق تفكيره وإحساسه، وبهذا يصبح عالمه عالم فكرة أو صورة. وما مثله إلاّ كمثل رجل يريد أن يرى الطبيعة فيذهب إلى شجرة ويراها منعكسة في شعاعات سائلية.

إن حقيقة وعي الأنانة صورة لرجل حوض البحر المتوسط، وليس الشعور بها عند الجرماني إلاّ مرضاً في العقل. فالوعي لا يكون موجوداً إلاّ إذا كان وعياً بشيء. ولهذا نرى في النظام الطبيعي أسبقية العالم الخارجي على الوعي. إن وعيك كموضوع لوعيك شيء ثانوي ويتطلب العالم الخارجي، وهذا عكس ما يفكر فيه الجرمان. فالأشياء الحسية عند الجرمان أمر ثانوي بالإضافة الى الوعي الداخلي. وهنا يمثل كانتْ أوج الذاتية في الروح الجرمانية التي تقود الفرد إلى الاعتقاد بأن « الأنانة » هي الحقيقة الأولى في هذا الوجود. وهكذا فإن كل محاولة من جانب الجرمان في الوصول إلى ما بعد الذات خاسرة، ولا يكون الاتصال مباشراً بل صناعياً مكوناً قبلياً في الذهن apriori.

أما رجل الجنوب فشاعر منذ البداية بالعالم الخارجي ومقضي عليه بالعيش في جلبة أسواق العالم، وليس لهُ من سبيل إلى الانفراد بنفسه. فمشكلته تنحصر في كيفية الغوص في نفسه وتفهّم حقيقة الأنانه. وإن وصل إلى حقيقة نفسه فما يكون ذلك إلا بعد أن يختبر الأشياء في « أنت » ثم يرجع بها إلى « أنا »، لهذا فهو أميل إلى تفسير « أنا » من الخارج على الصورة التي اختبر بها الناس والأشياء. وليس ذلك بالغريب لأن فلسفة البحر المتوسط تركب الأنانة على الصورة التي تركب بها الجسم، وذلك باستثناء فلسفة القديس أغسطينس التي تعرف الأنانة على الصورة التي يعرفها فلاسفة العصر الحديث.

على أن هذا الاختلاف بين تلك الروحين أدى إلى صراع عنيف بين رهبان الشمال ورهبان الجنوب في أوربة. فهوجو وسكوتس وأوكام من أهل الشمال شغلوا أنفسهم بالحياة الداخلية على حين أن القديس توما الاقويني ـ الايطالي الصميم ـ أحيا فكرة الجسم الروحي الارسططالية التي يتكوّن نصفها من المادة والتي ليست لها سلطة على التفكير فحسب بل على نمو الجسم أيضاً. ومن هنا نرى أن التفكير لم يكن ليفهم من الداخل كما هو عند الجرمان، بل اعتبر حقيقة داخلة في نظام حركات الأجسام.

« شرقي الاردن »

منشأ الدولة الأتابكية

لناجي الطنطاوي

من أعضاء مكتب الدراسات الاسلامية بدمشق

يبدو للمتأمل في مجرى التاريخ أن الدول الحاكمة ينشأ بعضهـا عن بعض في تسلسل منظم ، فلا يكاد يضعف أمر أمة بعد العزة والمنعة والقوة ، وتدب اليها عوامل الانحلال والفوضى ، حتى يستيقظ فيها عنصر جديد فتيّ يتسلم الحكم فيها ، أو يغزوها حاكم أجنبي قوي يستولي عليها . هذا هو شأن الأمم والممالك في الشرق والغرب . انقضى عهد الخلفاء الراشدين ، فتلاه عهد الأمويين ثم أعقبهم العباسيون ثم . . . ثم . . . ثم تلاهم بنو بويه فبنو سلجوق ، فالأتابكيون ، فالأيوبيون ...

كانت الدولة السلجوقية (١) على جانب عظيم من القوة ومنعة الجانب وسعة السلطان ، عمّ نفوذها خراسان والري وكرمان وبلاد الروم وامتد إلى العراق وسورية ، وتعاقب عليها ملوك ذوو طموح وهمة وحزم ، وطدوا بدهائهم وحسن سياستهم هذا الملك الشاسع وحفظوه من طمع الطامعين وكيد الخائنين ، ولكن لم يكد ينقضي القرن الخامس الهجري حتى مال نجمها إلى الأفول منذ قضى عاهلها العظيم ملكشاه ، فتفككت عراها وانحلت أواصرها وتقوضت دعائمها ، فاستقل الأميران سليمان وتاج الدولة تتش بمملكتيهما — الأول في آسية الصغرى والآخر في بلاد الشام — استقلالاً تامًّا ، وعادا لم يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية ، وتبعهما في هذا الاستقلال عن الدولة الأمراء الآخرون الذين لم يجسروا على ذلك إلاَّ بعد موت ملكشاه ونظام الملك ، وكلاهما من ذوي العبقرية الفذة والشخصية القوية ، فماتت بموتهما عظمة الدولة السلجوقية وانهار بناؤها الشامخ المتين .

كان لملكشاه هذا مملوك (٢) تركي يدعى آق سنقر بن عبد الله (٣) تزوج حاضنة السلطان إدريس بن طغان شاه ، وحظي بثقة ملكشاه فأصبح من أمرائه وصار من المقربين إليه ومن خواصّه ، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته ، وزاد قدره علوًّا إلى أن صار يتّقيه مثل

---

(١) دامت الدولة السلجوقية الكبرى التي أسسها طغرل بك ٩٣ عاماً (٤٢٩—٥٢٢ هـ) ودامت الدولة السلجوقية في سورية — وهي التي نشأت عنها الدولة الاتابكية — ٢٤ عاماً (٤٨٧—٥١١ هـ).

(٢) وقيل إنه اصيق له لا مملوكه أي من أصحابه وأترابه وممن ربي معه في صغره (٣) وقيل إن اسم أبيه آل ترخان من قبيلة ساب يو

نظام الملك، مع تحكمه في السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يداً بذلك ، فأقطعه السلطان جميع ذلك . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بقسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها (١) .

ولما قدم ملكشاه حلب في رمضان ٤٧٩ هـ قاصداً أخاه تاج الدولة تتش ، قدم معهُ آق سنقر وانهزم تتش ، وبعد انقضاء عيد الفطر رحل ملكشاه عنها وقرر ولايتها لآق سنقر هذا في مستهلّ عام ٤٨٠ ولقّبه قسيم الدولة فبقي فيها والياً إلى أن توفي وليّ نعمته ملكشاه ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة .

وأجمع المؤرخون على أن آق سنقر كان حسن السيرة إدارياً حازماً ، ساد في أيامه العدل والإنصاف . وانتشر الأمن في أرجاء حلب وعمّ الرخاء . كان قطاع الطرق منتشرين في البلدة يزعجون الناس ويثيرون مخاوفهم ، فتتبعهم وتتبّع اللصوص في كل مكان حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله فأمنت الطرق بعد خوفها وسلكت السبل بعد انقطاعها ، فشكر له الناس ذلك ، وبلغ به الاهتمام أن وضع نظاماً يقضي بأنه إذا وقعت حادثة سرقة في إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها (٢) .

قال ابن الأثير الجزري : « كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو غيره غرّم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق وتحدّث الركبان بحسن سيرته » .

وشنق من قطّاع الطرق خلقاً ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكان ذا هيبة عظيمة . وقرّب الحلبيّين وأحبّهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام ، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب بالرفق وقدّم اليهم من الجميل ما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر (٣) .

وبلغت السياسة المالية في عهده مبلغاً استغلّت بهِ حلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة

---

(١) الروضتين ٢٤ (٢) وقد أخذ بهذه النظرية بعض الأمم الحديثة .

(٣) الروضتين ، من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي .

دينار (١) . أما الناحية العمرانية فإن مدينة حلب قد عمرت في أيامه بعد الأمن الذي ساد أرجاءها ، إذ كثر ورود التجار عليها فقويت حركة التعامل وانتعشت الأسواق ، وتقاطر الناس إليها للمقام بها بعد ما عرف من حسن سيرته وعدله ، وجددت في عهده منارة حلب بالجامع عام ٤٨٢ ونقش اسمه عليها ، وأمر ببناء مشهد قرنَبْيا ، لمنام رآه بعض أهل زمانه ، ووقف عليه الوقف .

هذا وكان السلطان ملكشاه يفكر قبيل وفاته في القيام بمشروعات كبيرة ، منها إخضاع الخليفة الفاطمي في مصر ، فأمر لهذه الغاية آق سنقر وبوزان عامل الرها أن يلتقيا بجندهما مع تتش الذي تولى قيادة الجيش ، ولكنهم ما وصلوا إلى طرابلس حتى اختلفوا فيما بينهم . ويقال إن ابن عمار والي هذه المدينة رشا آق سنقر ووزيره زرين كمر ، ومهما يكن من شيء فقد عاد آق سنقر ادراجه فاضطر تتش إلى التخلي عن هذه الحملة ، وبعد قليل توفي ملكشاه فانتهز تتش الفرصة للوصول إلى السلطنة .

ولهذا سار مسرعاً إلى حلب ، وبالرغم من كراهية آق سنقر لتتش ، لم ير من الحكمة أن يقف في سبيله فتبعه مرغماً وحذا بوزان حذوه . وبعد أن سارت جنودهم مسافة طويلة وكانت الحرب وشيكة الوقوع بينهم وبين بركيارق الوارث الشرعي لملكشاه لم يكن من آق سنقر وبوزان إلاَّ أن تخليا عن تتش وانضما إلى بركيارق فأجبر تتش على الارتداد إلى الشام ، ولكنه مع هذا ظلَّ متشبثاً بأطماعه في السلطنة .

كانت كراهية آق سنقر الباطنة لتتش تبدو في بعض الأحوال بشكل واضح ، من ذلك أن تاج الدولة تتش نزل مرة إلى السلطان ملكشاه ، فلما رآه ترجل له ـ وكان في الصيد ـ خيفة ان يسيء به الظن ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تتش : كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب. فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ؟ قال : نعم ، يطلع الله في عينيه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك ، فأسرها تتش في نفسه وأضمر السوء له.

ولما توفي السلطان ملكشاه كان تتش في دمشق ، فأراد العبور مختفياً ليمضي إلى خراسان ويرث ملك أخيه ، وخرج في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ ومعه خلق من العرب وقطع عاصي ورعى عسكره الزرع ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب فنهض إليه وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمئة فارس منجدين قسيم الدولة ، وحصل الجمع بحلب ، واستدعى آق سنقر منجماً ليأخذ

---

(١) كتاب عنوان السير وكتاب شذرات الذهب

له الطالع فحضر عنده واختار له وقتاً وقال : تخرج الساعة فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنهُ قدر عسكره بعشرين ألف فارس وقيل كان يزيد على ستة آلاف، وقصد تاج الدولة في ٩ جمادى الأولى . وتقول إحدى الروايات إن قسيم الدولة خرج إليه وقال لأصحابه : إلحقوني بكتاف الأسرى - استصغاراً لخصمه - فقال له سكمان بن أرتق : حركشتهم ؟ - أي : أرأيتهم ؟ - ولم يتمهل إلى حين تصل خيله فمضى واستعجل .

قطع آق سنقر سواقي نهر سبعين (١) قاصداً تتش ، وكان تتش قد وصل إلى الحانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ورحل من الناعورة قاصداً الوادي وادي بزاعا ، وحصلت الواقعة عند قرية سبعين أو بكارس (٢) وكان أول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب خوفاً من قائديه اللذين أخرجهما من السجن ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصافّ ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبوزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأكثر أصحابه ، ورحل تتش من موضع الكسرة إلى حلب فملكها واستولى على المواضع التي كانت لقسيم وجلس في قلعة حلب وشرب فيها وأحضر قسيم الدولة.

وقتل آق سنقر بين يدي تتش في سبعين أو بكارس وقال له تتش قبل قتله : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيّ ؟ قال : أقتلك . قال : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم عليّ ، وقتله صبراً ، وقطع رأسه وطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قَرْنَبْيا وهي هضبة تقع قرب حلب ، وقيل إن آق سنقر قتل بقرية بكارس قرب حلب . ولما ولي ابنه عماد الدين زنكي — أبو نور الدين — نقله إلى مدرسة كان قد ابتدئ بعمارتها ولم تتمّ ووقف عليها ضيعتين هما شامر وكارس يساوي مغلهما ألف دينار كل سنة وعمر بها عمارة معجزة ونقل رمّته إليها ، وجعل قبره قبالة المسجد من الشمال وأجرى إليها قناة ماء وغرس وسطها وجعل القبر مثل قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

وكان قتل آق سنقر يوم السبت ٩ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ وقتل معه أربعة عشر مقدّماً. (٣)

« دمشق »

---

(١) قرية من قرى حلب من نقرة بنى أسد على نهر الذهب

(٢) وفي رواية : في أرض تبل وهي قرية قريبة من إعزاز وضواحي حلب . وفي دائرة المعارف الاسلامية : عند قرية ريان . وهو خطأ

(٣) المصادر: الروضتين، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الاثير، وعنوان السير وغيرها .

التمثيل الخارجي*

للدكتور نجيب الأرمنازي

هذه خمسة وعشرون عاماً والبلاد السورية تجد وتدأب في سبيل إدراك استقلالها وتحقيق وسائله ، فأجرت في سبيل هذه الغاية محاولات جمة ، وكانت تجدد المساعي في كل بضعة أعوام حتى دخلت البلاد في وضع سياسي أصبحنا نتطلع فيه إلى المستقبل بثقة تزداد مع الزمن ، ونحن نتوقع أن نستوحي من عبر الماضي وعظاته ما يكون عوناً لنا في تسديد خطواتنا ، ودليلاً ومرشداً في معالجة ما نحن مدعوون إلى معالجته من أمورنا .

والاستقلال الذي هو مظهر سلطان الأمة وحريتها إنما يتجلى في سيطرتها على أمورها الداخلية وأمورها الخارجية ، والتمثيل الخارجي أو السلك السياسي جزء من هذا السلطان . وسنبدأ في البحث بالأوصاف والميزات التي يجب أن يتحلى بها رجال السياسة ، ثم نبحث عن رجال السلك السياسي وما يقومون به من الأعمال ، ونورد بعد ذلك بعض ما جاء في كتب العرب من الآراء في شأن السفراء والرسل والعيون والجواسيس ونشر الأخبار ، فنشاهد هذا التشابه العجيب في الآراء التي يأتي بها الفكر الإنساني في أجياله المختلفة لحل المعضلات المتشابهة التي تعرض عليه . والأمم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، والتشابه عظيم بين القواعد التي أخرجت للناس ، وميراث الفكر والعقل عام مشترك بين الجميع .

١ — أوصاف رجال السياسة وميزاتهم

قد لا تكون صناعة أكثر تنوعاً واختلافاً من السياسة في معناها الدبلوماسي لأنها مرتبطة بجميع المشكلات التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج إلى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للأسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة أن يكون متمكناً من نفسه مسيطراً على هواه لا يستفزه حال إلى البوح بما لم يكن قد صحّ رأيه على أن يبوح به ، وعليه أن يكتم ما يعرض في خاطره ، فلا ينطق بكل ما فكر فيه ، ولكن يفكر في كل ما ينطق به ، وليس الصمت في

---

* من كتاب المؤلف معد للطبع

معرض البيان بحزم، ولكن الحزم أن يحسن المرء القول حيث ينبغي أن يكون . وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها، فإن كثيراً من الساسة البارعين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة . وكان (تليران) نزر الكلام في المجامع ولكنه متبذل في مجالس ثقاته ، وكان (مترنيخ) أحسن الناس حديثاً وأكثرهم نادرة ، وكان اللورد (ليتون) أحد مشاهير السفراء البريطانيين في أوائل الجمهورية الثالثة في باريس موصوفاً بفصاحة الأسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه أن يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد أن يقولها ، وقلما وجد رجل مثله يجمع مختلف المواهب العظيمة التي يتمم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس حين مات هذا السياسي قالت : كان يجمع بين التفكير والثقافة وبين صفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والأدب .

والفَوَقَان في عالم السياسة يحتاج إلى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع ، وبذلك يستطيع السياسي أن يستطلع خفايا القلوب ، ثم لا بد له من أن يستمد من أعماق نفسه نبل العواطف ومكارم الأخلاق وصحة العزيمة وقوة الإرادة . فإذا اقتضت منافع بلاده أن يدافع عنها دافع بكل صلابة وشدة وثبات على الرأي الذي أنضجته الفكرة وهذّبته التجارب ، ولا شيء يودي بمصالح الأمم مثل التردد والتواني . كما أن من أشرف الخصال التي يسمو بها الساسة المضاء في الأمور والوقوف عند الرأي الذي قطع به ومسايرته الى أن ينفذ ويبلغ أجله ، وقد كان الكردينال (ريشليو) واسع الحيلة بعيد النظر ولكنه متردد عند ما يصير الأمر إلى الغاية القصوى ولا يبقى سوى إنفاذه ، ففي هذه الساعة الأخيرة كان يسرع إليه الأب (جوزيف) مستشاره فيمده برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي أن يكون حسن النظام في جميع أعماله وأطواره ، بعيداً عن النقائص والمثالب ، خالصاً من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجي المنافع العامة من رجل أخلى شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام أو أفرط في اللهو واللعب والتهالك . فانه لا يستحق أن يدخل في عداد الساسة أولئك الذين تحكمهم أهواؤهم ولا يحكمونها وتستعبدهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على أنه لا يكفي الرجل الذي يجدر به أن يمثل أمة أن يكون معروفاً بالعفة والنزاهة موصوفاً بالذكاء والفطنة ، بل عليه فوق ذلك أن يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة . فالفوز في كثير من الأحاديث الخطيرة يرجع في الغالب إلى قيمة المحدث وما له من شأن ، وقد يكون هذا

الشرط كما قال (براديه فودره) ، مثبطاً لهمم فريق من الناس الذين تسمو بهم الانقلابات إلى المنازل التي لم يكونوا أهلاً لها .

وقد وصف (سان سيمون) أحد رجال السياسة في القرن السابع عشر (أرنولدري بومبون) بقوله : كان رجلاً منفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج دون بطء ، ويمتاز بمعالجة الأمور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل إلى أغراضه بلا حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها استمال جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير والثقة مهذباً محسناً ، لم يأتِ وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة عن البذخ والترف ، لا يدع عمله العظيم إلاّ لأسرته وأصدقائه وكتبه ، وعلاقاته العذبة تستهوي النفوس وتسحرها ، وأحاديثه من غير أن يريد وأن يتكلف ، لا تنتهي فائدتها لسامعيه .

وصوّر الكاتب الفرنسي (لابروير) رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء المواكب ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على أوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير أو الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير أسارير وجهه إلاّ عمداً ، ويستشير في أعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرّف ما لديه من قوة أو ضعف ، ويترقب أحوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طبائعها وأمزجة رجالها الذين يفاوضونهم أو الذين يخلفونهم ، وكل آرائه وكل قواعده ونظراته وكل تدقيقاته السياسية وكل محاولاته إنما ترمي إلى غاية واحدة هي أن لا يكون قد خدع وأن يتمكن من خديعة سواه . ومن أعظم وسائل النجاح أن يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب أن يبلغ الغاية من الإحاطة ، فعليه أن يكون بعيد الغور شديد الإبهام عند ما يريد إخفاء حقيقة يذكرها لأنه يهمه أن يذكرها وأن لا يصدق فيما قاله عنها، ويتظاهر بأنه صريح صادق حتى يستطيع أن يخفي ما لا تجوز معرفته ، ويقنع مخاطبه بأنه قد أطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه إذا وجد في ذلك ما يعينه على تحقيق أغراضه ، ويؤازر أيضاً الضعفاء ويؤلّف بينهم لمقاومة الأقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة . ويكون أيضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بعيد الأثر في إدراك شؤون الحياة وإتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الإتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم إلاّ عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ، ولكنه في الحقيقة

لا يفكر إلاَّ في منافع سيده أو جمهوريته، وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستعد دائماً لبذل الأمور الصغيرة وإهمال مسائل الشرف الموهومة .

وأوصى (الكونت دي بيلوف) ابنه الذي أصبح بعد ذلك (البرنس دي بيلوف) المستشار الألماني بوصية أورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي أن يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها ، فقال فيما قال :

« الزم الحقيقة كل الحقيقة بدون هوادة ولا تساهل في كل ما تنقله وترويه ، وإياك أن تحمل من الأنباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن أن تتضح حقيقته ذات يوم ، وإياك أن تقع في الاسفاف ونشر الشوائع والمبالغات والمفاخرات الباطلة وتلوين الأشياء بألوان زاهية جداً ، واحذر الافراط في الاستنتاج ، واجهد كل الاجتهاد في تحري الحقيقة وأنت تذكر الأرقام ، ولا تقع في الأشياء المخترعة والأساليب المستحدثة ، ولا تصف أمراً بأكثر مما هو على حقيقته إذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذراً فيما تقرره من حكم ، ولا تتكهن فيما ترويه وتخبر عنه ، فقد انقطع عهد النبوات والمعجزات والإخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه ولكن لا يمكن عقد الأيمان على شيء لأن التغير والتبدل من الأمور التي لا مفر منها ، ولا تجعل أحداً يقع في مشكلة بسبب تقاريرك ، فإنه لا يتفق مع أصول اللباقة وأسباب الحزم . ولا تكتب شيئاً في ساعة غضبك ... وعليك بالحذر فيما ترسلهُ من برقيات ولكن كن أكثر حذراً عند وضع الأرقام التي يجب إعمال الفكرة كثيراً فيها . وإياك أن تفرط في النقد في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب . . . وكن هادئ النفس معتدل المزاج رزيناً وقوراً ، ولا يأخذك الجزع في شيء ولكن تعمد الجد في كل شيء، واحرص على السبق وانتبه إلى كل ما حولك ولا تستسلم أبداً إلى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة إذا لم تكن أذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل أسلوبك واضحاً موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا إملال » .

٢ — السلك السياسي

أ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ، ويلحق بهم القناصل والخبراء ، وتوزع في السفارات الأعمال بين مكتب سياسي ومكتب إداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الأعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد اشتدت الحملة في بعض الأحيان على السلك السياسي ، ولا سيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات إذ دعا الناقدون إلى الاستغناء عنه وجعله نظاماً لا يختلف عن النظام القنصلي ، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك بمرسلين ، ولكنه برغم التطور الذي حدث فإنه لا يزال على حاله في علاقات الدول وارتباط بعضها ببعض .

وإن الطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي أن يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها . ويجب عليه أن يختار أحسن الأساليب ويتفق عليها مع حكومته حتى يبلغ أفضل الغايات في خدمة مصالح الدولة والوطن ، ولا يكفي أن يكون عارفاً حق المعرفة بدعاوي دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها وما ضمنته لها العهود والعقود ، بل عليه كذلك أن يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلاقات .

وفي الحق أن المزايا التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية كثيرة الاختلاف ، والأعمال التي يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو سياسة أمة ببراعة وإتقان ، ومن الصعب إدخال الصفات المبتغاة تحت حصر وإحصاء ، ففي الأمور الخارجية — كما قال (مارتنس) في كتاب الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الإكراه على شيء ، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة ، وأقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً بأسره ، والسعي الخاطىء والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب المصادفات قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة .

ووزير الخارجية بوصفه رئيساً للسلك السياسي يستدعي السفير متى أراد ، وللسفير كذلك أن يطلب المقابلة ويعنى بطريقة إثارة البحث ، وإذا كان ذلك بتكليف من الحكومة فسبب البحث ظاهر ، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير ، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتحاشي الأخبار السيئة وفي الصمت والنظر ، وعدم الإفراط في تقدير وجود الدسائس والمكايد ، وهدوء الأعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع ، واجتناب الغضب وكل ضعف إنساني يخرج الرجل عن طوره ويحمله على البوح بمكنون سره ، ويجب على السياسي أن يفصل بين شعوره والأمور التي يعالجها مهما تكن العواطف الوطنية التي تملأ قلبه . بل إنه ليقال أيضاً — وإن كان في ذلك إثارة وإغضاب لحماسة الكثيرين — إن أفضل سياسي ليس الذي ينقاد إلى قلبه ولكن الذي ينقاد إلى المنطق الهادئ ، ويتساءل ماذا يستطيع أن ينال وما هو سبيل الوصول إليه . ولما

كان التمكن من النفس ليس من صفات كل إنسان وطبائعه ، فعلى من يريد أن يكون جديراً بالعمل السياسي أن يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها، وإذا عزَّ عليه إدراك ذلك فلابدّ أن يصبر في إنفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمان ، ومن الواجب أيضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر فيه ، والخطأ في المرمى قد يعقب ضرراً لا يمكن تلافيه ، ويجب في الأمور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة أكثر من الاجتهاد باحداثها، فإن (ريشليو) و (بسمرك) لم يبدعا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما.

ووزير الخارجية الجدير بهذه المهمة الخطيرة يستطيع أن يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ويراقب أعمالهم حتى لا يخرج أحدهم عن النهج المرسوم ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ويرسل إليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ووزير الخارجية بوصفه مرجع ساسة الدول الأجنبية في بلاده له مهمة مزدوجة ولكنها مرتبطة من ناحيتيها ؛ فهو يعالج الشؤون السياسية في الغالب بالمحادثات الشفوية وليس ذلك لأن الحكومات تريد أن تتخلص عند الحاجة من العهود المكتوبة بل لأنها تريد أيضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المحادثات السياسية مع وزير الخارجية ، وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع بطون الصحائف والدفاتر . وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات أشكال شتى فمنها ما هو رسمي وما هو شبه رسمي وما هو موقت وسري وخاص وما هو لتنفيذ الأوامر والمناقشة في الشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الأنباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليغ واحتجاج . وعلى السفير أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية ، وان لا يقاطعه مهما تتحرج الحالة بينهما وأن يحسن اغتنام الاجتماعات الأسبوعية أو الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ما يريد الاطلاع عليه، إذ لا يستحسن أن يكتب إلى الوزير يسأله رأيه عن حادثة أو ثورة ولكنه يستخرج ذلك في أثناء مجاذبته الحديث ومخاطبته إياه ، وقد قال (تليران) في وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : « يجب أن يكون عند وزير الخارجية شيء من الفطرة والملكة يحذرانه بسرعة ويمنعانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة » .

ولا بد في بعض الاحيان من الالتجاء إلى الكتابة ، فالاحتجاج مثلاً يكون حينئذ

أكثر تأثيراً ، على أن اختيار هذه الطريقة غير تابع لقاعدة معينة . وقد تفتر العلاقات بين وزير الخارجية وبين السفير فيلجأ حينئذٍ للمكاتبة ، على أن هذه الحالة لا تكون إلاّ إلى حين ، فإما أن يتلوها استئناف العلاقات وإما انقطاعها . ومن المجمَع عليه أن يتفق مع الحكومة على هذا الأمر ، وقد يستلزم الغياب والمرض الكتابة وكذلك المسعى الذي يقوم به السفير لدى الوزير وما ينتظر أن يكون من تأثيره عنده فيطلعه عليه أو على بعضه كتابةً بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك أملاً في أن يكون أكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة إليه .

ويغلب أن يبقى السفير للوزير بعد الحديث مذكرة لتأييد ما قاله في حديثه ، وذلك في المسائل المعقدة خاصة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة ، أما إذا قدم السفير وثيقة بأمر الحكومة فحينئذٍ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافاً .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث . والمذكرة الشفوية لا توقع ولا بأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرة والخواطر في صيغها الأخرى لا توقع أيضاً وأسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف إلى هذه المذكرات أنها بأمر الحكومة لتعزيز ما فيها ، على أن هذا من الفضول والزوائد لأن ما أرسل يكون بأمر الحكومة ، وقد تضاف كلمة «سري» . ويجب أن يكون المكتوب واضحاً محدداً مهذباً بعيداً عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية ، ولا بدَّ من المجاملة في الألقاب . وأما الشؤون المهمة السياسية فتعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

ب — السفراء

يقوم السفير بمهمة تمثيل بلاده ، فينبغي عليه أن يكون رسول سلام وأن يجعل شخصه قريباً من القلوب بمظهره وكلامه وأساليبه ، وهو لا ينال ذلك إلاّ بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة أنيقة وعشرة طيبة ، فيحافظ على كرامته بدون كبر ولكن بإباء وترفع ، ويكون حسن البزّة ولكن بغير تكلف ولا تصنع ولا إغراق . وتختلف الحاجة إلى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف أوضاعها . وعلى كل حال فإنه لا يجوز الافراط الذي ينقلب إلى حد الهزؤ والسخرية . والسفير الذي يمثل سياسة ليست الفضيلة عنصرها المميّز عليه أن يكون في حياته الخاصة بعيداً عن كل ما يدنسها ، فهو عرضة للمراقبة ، والسيرة الحسنة تنفعه كما تنفع بلاده لأن العالم يألف التعميم ، وهو بذلك يكون أيضاً مؤثراً في معاونيه ،

ولا يكونون قدوة لهم في عمل سيء . وإذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه أن لا يخرج عن شروط الرجل الشريف، والحيلة تدل في الغالب أن الرجل قليل الرأي ضعيف التدبير ، وأصحاب الأخلاق الكبيرة يتنزهون عنها . وعلى السفير أن لا ينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ولا ان يقاومها بكل ما لديه من روح المقاومة والمعارضة وهو في البلاد المحمية . فمهما تكن درجته فعليه أن يكون مضاعف البراعة وأن يحسن التفريق بين البلاد الحامية والبلاد المحمية . وعليه أن يفي بما يعد به ، فما قيمة السفير إذا أصبحت كلماته باطلة ووعوده كاذبة وضميره ساقطاً . وعليه أن يتجنب المفاجأة والكبرياء وأن لا يضايق محدثه بمحاولة إظهار براعته والإدلال بصحة رأيه . ومن مقتضيات الحذر الإصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين وعدم التشبث المطلق بحججه. وعندما يريد الاعتراض على رأي يجب أن يحمل إلى المناقشة إنصافاً وعدلاً مهما تكن القضية التي يدافع عنها حقاً، فلا يشعر أحد بتحامل على رأي يبديه . ولا بأس بالتسليم في بعض الاحيان لاستمالة المحدث ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول إلى الغاية المطلوبة .

وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة أو في البغضاء والحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم الصبر والدأب . ومهما يكن الرجل الذي يراد إقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات إليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الأمور أكثر من جواب عنيف أو طلب مثير. ويجدر بالسفير أن لا يكون كثير الانطلاق وأن يظل بعيداً في فكرته قريباً في نفسه . والتواضع السياسي — وإن كان تظاهراً في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الأمور — يُحمد أثره إذا لم يكن مقروناً بالمبالغة . واجتناب الغضب يجعل المرء متمكناً من نفسه فلا تبدر منهُ بادرة تثقل كاهله أو كاهل بلاده كما وقع (ابتمن هولوغ) عند ما وصف حياد البلجيك بأنه قصاصة ورق. ثم يطالب السفير باحترام الشعائر الدينية مهما يكن مذهبه ، وأن لا يهتم بالاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ، فقد يكون هنالك أشخاص لا قيمة لهم وأشخاص محرضون ، والتهالك على تغيير كل شيء لا تحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، وإذا لم يكن حسن التصرف فطرياً فالطبيعة تساعد على نموه .

وهنالك قضايا لا تزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز ما يصنعه السفراء أو عدم جوازه كالكذب والافساد والتجسس والرشوة . وقد كانت تتناقل الألسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي أن السفير رجل شريف أرسل إلى الديار الأجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل أيضاً مثل ذلك في السفير : إنه يتجسس لدولته بصورة

رسمية . ولم يكن (مكيافللي) ومن حذا حذوه يشاركون الأديان والمعتقدات في استنكار الكذب واعتبار بعضها إياه من الكبائر ، لأنهُ في نظرهم لا يجوز البحث والمناقشة عند ما تكون سلامة الدولة في خطر . ولكن ما أنبل الذين يستطيعون أن يقفوا بين أيدي الحقائق غير مفتقرين إلى تحريفها . على أن الصمت يكون في بعض الأحيان منجاة لأصحابه من قول الباطل أو من التعرض للخطر بذكر الحقيقة . أما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على أنه يعذر سفير إذا قام بشيء أمره به رئيسه . ولكن هل يجوز له أن يتدخل في سياسة محلية ويعارض الدولة التي هو فيها . وإذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها أو دفع الضرر عنها فانه يقتضي مع ذلك إذا كلفه سيده بأمر أن يحذره قبل أن يطيعه ، وإن كان الرفض به أجدر والتحريض على الجريمة شر من ارتكابها . وتقدر الأمور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو دفع شر .

أما المال فقد كان (فيليب المقدوني) يقول إنه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين كذلك ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء وأعضاء المجالس العامة ، ولكن الأمر الذي يصعب تمييزه هو أين تنتهي المجاملة وتبدأ الرشوة ؟ فعلى السفير أن يكون شديد الحذر في قضايا المال حتى لا يصيب سمعته بأذى ، ويجب عليه أن يأبى قبول أية هدية يمكن أن تؤول أو أن تتخذ وسيلة لغاية حتى إنه إذا استطاع أن يرد هدايا مواطنيه كان ذلك خيراً له . وينبغي عليه أن يكون جواداً سمحاً ولكن بدون إسراف ولا إفراط ولا محاولة للظهور بمظهر الفائق على أصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها .

ولما كان في مقدمة الأعمال التي يقوم بها السفير إطلاع حكومته على سير الأمور فعليه أن لا يتهاون في تتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها . ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر وأناة ، وإقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الأشياء والأشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور والحكم الصحيح في الأمور على إدراك الحقائق . والصحافة وسيلة مهمة للأخبار سواء صحافة البلاد التي فيها السفير أو صحافة البلاد التي تنتمي اليها ، ومهما كانت أنباء الصحف تحمل الحقائق والأباطيل ولا يكفي تمييز بعضها عن بعض فانه لا يجوز إهمال شيء منها . على أن الأخبار الملفقة تفيد فائدة كبرى لأنها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها ، سواء أمرضية كانت الأنباء أم غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها .

وقد كان (لويس الرابع عشر) الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على موافاته بجميع الأنباء لأنهُ يريد معرفة الأنباء السيئة كما يريد معرفة غيرها. على أنهُ يحسن اجتناب الأنباء التي لا تفيد إلاَّ إثارة النفوس ، وقد وقعت حادثة لسفير إنكلترة في فرنسة أيام حرب السبعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة ، وذلك أن السفير قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم أخلي سبيله وكان معهُ بعض موظفيهِ فأمرهم بالصمت إذ لا فائدة من ذكر الأنباء التي لا علاقة لها بأعمال الدولة .

وقد تكون مهمة السفير أصعب في بلاد منها في غيرها ، وذلك بحسب ما تستطيع البلاد كتمانهُ من شؤونها العامة وما تعرضهُ لأنظار المراقبين لها ، ولا يجوز للسفير أن يعتمد في أنبائهِ على الخونة ولكن على مقدرة في الملاحظة والاستطلاع ، وينبغي أن يكون على حذر من الجواسيس إذا لم يجد بدًّا من استخدامهم لأن هذه الطائفة من الناس لا تبالي في سبيل المال أن تخترع الأنباء ، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن أن تكون لهم ضمائر تحاسبهم فهم لا يترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال إذا وجدوا من يزيد في عطائهم .

والسفير يعرف ماذا ينتظر منهُ بحسب البلاغات والأوامر التي لديهِ ، ويحسن أن ترسم له خطة قبل سفره وأن تكون واضحة بينة لا تحتمل شكًّا أو تأويلاً . على أنهُ بوجوده في مكان عملهِ له حق التقدير ويمكنهُ أن يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند واضع الخطة . وإذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف بهِ وحمل الأجوبة التي يتلقاها فلا حاجة إلى أن يكون حذراً أو فصيحاً ولا أن يبذل العناء في حسن الاختيار .

وجملة ما يقال أن في حسن إدارة الأخبار وتلقيها وملاحظة الأشياء والأشخاص والاستدلال بالوقائع والأحوال والجد في تسيير الأمور وتمثيل البلاد خطر مهمة السفراء .

وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول ، فكانوا هم المفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها مثل معاهدة (وستفاليه Westphalie) من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم ، وقد أريد أن تقوم عصبة الأمم مقامهم في تسوية قضايا الشعوب ، فأصابت بعض النجاح ، ولكنها لم تصل إلى الغاية التي أرادها منها منشئوها وانتهى أمرها إلى الإخفاق .

جـ — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل . والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الأجنبية للسهر على مصالح مواطنيهم ، وقد وصفهم

(تليران) بقوله : إن خصائصهم تختلف اختلافاً لا حد له ، وهم يقومون بوظيفة ضابط الأحوال المدنية وكاتب العدل وأحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، وأحياناً بوظائف بحرية ومراقبة الاحوال الصحية في السفن ، ويمكنهم أن يروا رأياً صحيحاً في التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون بها . ويفيد القناصل بما يبدونه من آراء تجار البلاد وأرباب المصانع . وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامّين ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست إلاّ من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء . والقناصل لا يتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباً تعترف بهم ، ولا يمكن القيام بوظائفهم ما لم تمنحهم الحكومات التي يعينون لديها صفة التنفيذ من غير أن يكون لهم صفة سياسية ، ما عدا بلاد الشرق ، فقد كانوا يتمتعون فيها أحياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها من مكانة .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم وإن كانوا يسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويحسبون أن كرامة بلادهم تتعرض للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره أقطاب السياسة مثل (تليران) و (بسمرك) و (تييرس) .

« الذيل »

بعض الآراء الاسلامية فيما يلابس ذلك

الدبلوماسية من منشآت العصور الحديثة . ولكن الفكر الانساني كان عليه أن يعالج الأمور المشابهة لها ، لذلك نجد المؤلفين في ابان الدولة الاسلامية والحضارة العربية يعرضون بطبيعة الحكم وحاجات السلطان الى مثل هذه الامور التي أوردنا ذكرها نقلا عن الغربيين ، فبحثوا في أساليب الكتابة في الأحداث الخطيرة وفي شؤون السفراء والرسل والعيون والجواسيس ، وكانت هذه الأبحاث تتصل بنواحي الشرع والفقه والسياسة والأدب ، ونحن نقتبس هنا بعض ما أوردوه من ذلك :

ا — الكتابة في الأحداث الخطيرة

ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « مواد البيان » ما يكتب به عن السلطان من خبر يريد التورية عنه وستر حقيقته كالاعلام بالحوادث الحادثة على الملوك والنوائب الملمة بالدولة : من هزيمة جيش أو تغيير رسم أو احداثه أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما اشبه ذلك . فيجب أن يقصد بذلك الى الاختصار والايجاز ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى الى غيرها مما يحتمل التأويل ولا تنفر الاسماع منه ، ولا تراع القلوب به ، من غير أن يحتمل كذباً صراحاً ، فانه لا شيء أقبح بالسلطان ولا أغمض لشأنه وقدره من أن يضمن كتابه ما ينكشف للعامة بطلانه . وينبغي للكاتب أن يتخلص من هذا

الباب التخلص الجيد الذي يزين به الأثر ، من غير تصريح بكذب ، وأن يخرج الباطل في صورة الحق ويعرض سلطانه في ذلك للاحماد والتقريظ من حيث يستحق التأنيب والاذمام ، فان هذه سبيل البلاغة وطريقة فضلاء الصناعة لأن الأمر الظاهر الحسن المجمع على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه الى كد الخاطر واتعاب الفكر ، وانما الفضل في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ما ليس بصحيح ، بضروب من التمويه والتخييل واقامة المعاذير والعلل المعفية على الاساءة والتقصير من حيث لا يلحق كذب صريح ولا زور مطلق.

ب — السفراء والرسل

وجاء في « كتاب رسل الملوك » المنسوب الى أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء فصول جليلة الفائدة على قصر فيها وايجاز تذكر الحدود التي يجب أن يقف عندها الرسل في سفاراتهم والصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها كالصبر والوقار والاناة والشجاعة والحذر والصدق . وقد جاء في هذه الفصول ما يلخص بعضه في ما يلي هذا :

« اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا فصيحاً بليغاً حولا قلباً قليل الغفلة منتهز الفرصة ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد ، فطناً للطائف التدبير ومستقلا بما ترجو وتحاول بالحزم واصابة الرأي ، متعقباً له بالحذر والتمييز ، سامياً الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، ان حاول جر أمر أحسن اعتلاقه وان رام دفعه أحسن رده ، حاضر الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج ، مبرماً لما نقض خصمه ناقضاً لما أبرم ، يحيل الباطل في شخص الحق والحق في شخص الباطل ، محتالا في محاورته ومكايده ، وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية ، فانه لا بد مقتف آثار وليه مجيب لمناقبها مساو لأهله فيها . فمتى اجتمعت لك فيه هذه الخصال فاجعله من بطانتك واطلعه طلع أمرك خطيره وحقيره واستشره في شؤونك لطيفها وجليلها .

ويحسن أن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهير الصوت حسن الرواء مقبول الشمائل جيد البيان حافظا لما يبلغ ليؤديه على وجهه . ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ولا مهانة يستشعرها في نفسه فيه وتقديم النصيحة لرئيسه . فانه متى لم يكن المستكفي لهذا العمل واستعمل باباً من التحريف والتمويه فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويشافهه على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وقع في أعمال السلطان بذلك أظهر خلل وأعظم ضرر ، ولذلك يجب على السايس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له ويستقل به ويجريه على وجهه . . وينبغي أن يكون الرسول حاد البصر ذكي القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق بلسان مرسله . . فاذا ذكر عرف واذا نظر اليه لم يحتقر . . لا تقتحمه العين ولا يزدري بالخبرة . . والعامة ترمق المنظر أكثر مما ترمق الكفاية والسواء . ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه فان الطمع يقطع الحجة والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه . . ثم ان للرسالة حدوداً لا يتسع تعديها وحقوقاً يلزم القيام بها ، اولها ايثار الصدق وتعمد النصح وأن يصدع بالرسالة وله أن يدمج المعنى الغليظ منها في الألفاظ اللينة . . والرسول محتاج من الاقدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والرزانة ، لأنه ليس على كل الطبقات يشتد ولا لكلها يلين ، وربما لم يسعه الا أن يصدع بالرسالة على ما فيها ، فمن لم يكن جريئاً حرفها وأخل بها » .

وقد أورد الوزير نظام الملك في كتابه « سياست نامه » الذي وضعه بالفارسية فصلا في الرسل وطريقة معاملتهم نصح فيه بمراقبتهم والاحسان اليهم حتى يرضوا وذكر انهم يقومون مقام الملك الذي أرسلهم ، فكل حرمة لهم تكون موجهة له . وقد تعارف الملوك على أن يتبادلوا حسن المعاملة وأن يكرموا الرسل الذين يأتونهم فيعزوا شأنهم ويرفعوا ذكرهم واذا اختلف الملوك وتنازعوا فان السفراء كانوا يقومون دائماً خير قيام بما يعهد اليهم من الأمور المهمة على حسب ما لديهم من الوصايا والتعاليم . ولم يعرف أن الرسل أسيء اليهم وأنهم عوملوا بغير ما ألف من المحاسنة ، واذا وقع شيء من ذلك أنكره جميع الناس .

ولم يرد الملوك بإرسال السفراء أن يبعثوا برسالة ويكتفوا بها ولكن يريدون أن يعرفوا كثيراً من أحوال المملكة ودقائق شئونها ، ولا يجوز أن يركن اليهم بالثقة فهم كالعيون والجواسيس وأصحاب الأخبار . واذا أراد ملك أن يرسل رسولا فعليه أن يحسن انتخابه من أولي المعارف الواسعة والمدارك البعيدة وطلاقة اللسان وبهاء المنظر وحسن المخبر .

ج — العيون والجواسيس

قال صاحب «صبح الاعشى» : «النظر في أمر العيون والجواسيس جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة وقد شرطوا في الجاسوس شروطاً : منها أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فان الظنين لا ينتفع بخبره وان كان صادقاً لانه ربما أخبر بالصدق فتهم فيه فتفوت فيه المصلحة ، ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كتموه . ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ... ومنها أن يكون له دراية بالاسفار ومعرفة البلاد التى يتوجه اليها ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهلها ... ومنها أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة ان ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مرسله ولا يطلع على وهن في مملكته ، فان ذلك لا يخلصه من يد عدوه ولا يدفع سطوته عنه .

فاذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل لهذه الشرائط وما في معناها فعليه أن يظهر لهم الود والمصافاة ولا يطلع أحداً منهم في زمن تصرفه له انه يتهمه ولا أنه غير مأمون لديه ، فربما آذاه ذلك في أضيق الاوقات ان يكون عيناً عليه ... وعليه أن يجزل لهم الاحسان والبر ولا يغفل تعاهدهم بالصلات قبل احتياجه اليهم ، ويزيد في ذلك عند توجههم الى المهمات ، ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم .. واذا قضي على من بعثه منهم بقضاء أحسن الى من خلفه من أهله ، وجعل لهم من بعده من الاحسان ما كان يجعله له اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على التضحية . واذا قدر ان عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة فلا يستوحش منه بل يوليه الجميل ويعامله بالاحسان . وعليه أن يحترز من أن يعرف جواسيسه بعضهم بعضاً لا سيما عند التوجه للمهمات ، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وان لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى ايصاله اليه . . وأيضاً فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وممالأتهم لعدوه . . وعليه أن يصغي الى ما يلقيه اليه كل من جواسيسه وعيونه وان اختلفت أخبارهم ويأخذ الأحوط فيما يؤديه اليه اجتهاده من ذلك ، ولا يجعل اختلافهم ذنباً لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله . . واذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فليسترها عنه وعليه ولا يعاتبه على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه فهي خلوة بلطف .. فان ذلك أدعى لاستعلائه .. واذا أحضر اليه جاسوس بخبر عن عدوه استعمل فيه التثبت ودوام البشر ، ولا يظهر تهافتاً عليه تظهر معه الخفة ولا اعراضاً عنه يفوت معه قدر المناصحة ولا يظهر له كراهة ما يأتيه من الأخبار المكروهة ، فان ذلك مما يستدعي كتمان السرعة فيما يكره فيؤدي الى الاضرار ...

واعلم أنه لا يمكن أحده أن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه فيجب الاحتراز منهم بكتمان السر وستر العورة ما أمكنه ، على انه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان الى أن يعرف الملك عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، بأن يتودد اليه بالاستمالة والبر وكثرة البذل . حتى يستخرج نصيحته ، فحينئذ تلقي اليه ما أراد تبليغه الى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله اليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه» .

«. دمشق »

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٩ —

(هـ) مآصر القاهرة

أشرنا غير مرّة في ما مضى من بحثنا هذا ، إلى أن كلاًّ من المآصر النهرية والبحرية اتخذت لصدّ أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد ، ولتنظيم سبل التجارة وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور ، ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض ، بل نصبت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار الملحة وضفاف الأنهار . وسأقصّ عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الأنباء .

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة ، خليجاً[1] يعرف بـ « خليج فم الخور[2] » قال المقريزي إنهُ « يخرج الآن من بحر النيل ويصبّ في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره ، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري يمدّ خليج الذكر . . . »[3]

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة ، وأحد مواطن اللهو والتيه ، يعبرون فيه بالمراكب للتنزه ، وكان أكثر رواده من أهل القصف والبطالة ، « فظهر من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . . فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهنّ الزاهر يضربنَ بها وتسمع أصواتهنّ ، ووجوههنّ مكشوفة وحرفاؤهنّ من الرجال معهنّ في المراكب لا يمنعون عنهنّ الأيدي ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار ، وتوقّع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة »[4] .

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المسماة بقنطرة المقسي[5] . قال المقريزي إن قنطرة المقسي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصبّ في الخليج الكبير . كان موضعها جسراً يستند عليهِ الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمرّ الماء فيه

---

[1] خليج ، « انظر الذيل رقم ١ » [2] الخور ، « انظر الذيل رقم ٢ » [3] خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) [4] خطط المقريزي (٣:٢٣٣) [5] انظر كلاماً مفصلاً على المقسي في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ، و٣ : ١٩٦ — ٢٠٢ و ٤ : ٦٥ — ٦٦)

إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي (١) » . . . وما زال موضع هـذه القنطرة سدًّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي في أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أنْ يلتقي مع الخليج الناصري ، ثمّ خرب أكثر ما عليهِ من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصري في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيهِ عن الحدّ بكثرة التهتك والتمتع بكلّ ما يلهي إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حُسَين الأميران : برقوق وبركة فقام الشيخ محمّد المعروف بصائم الدهر بمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من الحرمات ويتجاهر بهِ من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الأميرَين المذكورَين بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هـذه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلاّ أن يكون فيها غلّة أو متاع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطّار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه   بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل   يقول لقد أوقفتم الماء في حلقي

تسلسلت (٢) قنطرة المقسي ممّا قد جرى   والمنع أضحى شاملا
وقال أهل طبنة في مجنهم   قوموا بنا نقطع السلاسلا

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا » (٣) .

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملّة الإسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) رسم الأمير بركة ... بأن يُعمل على قنطرة فم الخور سلسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلي . فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج   مذ سلسلوه فراح مقفل
مَن رامَ من دهرنا عجيبا   فلينظر المطلق المسلسل (٤)

---

(١) انظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ — ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ — ١٦٤)

(٢) في المطبوع « تسلست » وهو تحريف ظاهر

(٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٤—٢٤٥)

(٤) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣ ، المطبعة الشرفية) — (٢ : ١٨٢ ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ هـ)

وفي أيّام ازدهار هذا الخليج وارتياده مِن أهل الخلاعة والقصف وذوي الآداب والظرف عُمِّرَت البقاع المطلّة عليه ، فأنشأ الناس « بها دياراً جليلة تَتَناهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها ، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار ، وأجروا إليها المياه مِن الآبار ، فكانت تُعدّ مِن المساكن البديعة النزهة ، فكم حوت تلك الديار ، مِن حسن ومستحسن » ، قال مَن شاهَدَها : « ما مررتُ بها قط إلاّ وتبيَّن لي مِن كلّ دار هناك آثار النِعم ، إما روائح تقالي المطابخ ، أو عبير بخور العود والندّ ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دقّ هاون ونحو ذلك ، ممّا يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هي الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، فزالت الطرق وجهلت الأزقة » تلك هي العاقبة « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » (١)

الضرائب والعشور بمصر

كان الاهتمام بأمر هذه الثغور على مدى السنين عظيماً يأتي في طليعة الأعمال الرئيسة وقد وقفنا على تقليد للخليفة إلى السلطان من إنشاء فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في حدود سنة تسع وخمسين وستمائة يقول له فيه : « ....واجعل أمرها (الثغور) على الأمور مقدماً ، وشيد منها كل ما غادره العدو منهدماً ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً والعدوّ له ملتفتاً ناظراً ، لاسيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل إليها رابحاً وراح خاسراً ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً » (٢) . وهنالك عامل آخر غير صد الغزاة والطامعين ، هو استيفاء الضرائب والعشور ، وهي من الأسس التي عليها ثروة البلاد ، وقد كانت المآصر بمصر تعين الضرائبيين على إتمام عملهم على الوجه الحسن . وذكر البشاري المقدسي أن الضرائب بمصر كانت ثقيلة خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، فقد كان « يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رأيت بساحل تنيس ضرائبيًّا جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ، وبالإسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » (٣) . ولنا شاهد حسن فيما يرويه الرحالة

---

(١) سورة الاسراء (١٧ : ١٥)   (٢) السلوك للمقريزي (١ : ٤٥٦—٤٥٧) ، وراجع بهذا الصدد : مقدمة ابن خلدون (٢ : ٣٢— ٤٠ ، طبع باريس) ، وصبح الاعشى (٣ : ٥٢٣—٥٢٤) .

(٣) أحسن التقاسيم (ص ٢١٣)

ابن جبير، الذي وصل ثغر الإسكندرية في يوم السبت ثاني ذي الحجة من سنة ٥٧٨ للهجرة، قال : « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل » (١) .

خاتمة البحث

هذا ما انتهى إلينا من أخبار المآصر ، وهو كما رأيت ، كلام جمعت أجزاؤه من غير كتاب ، وضمت فوائده بعد أن كانت منثورة في كثير من المظان ، تلك التي حاولنا جهد الطاقة أن نجمع أشتاتها ، ونصل ما بين حلقاتها لنخرجها على الوجه الذي بين يديك .

وقد بان لك من مطاوي البحث أن هذه المآصر بصنفيها : النهري والبحري ، كانت جليلة القدر ، عظيمة الخطر ، وعلى أيديها كانت تنتظم أمور الحرب وسبل التجارة مدى أجيال كثيرة في بلدان الروم والاسلام .

« بغداد » ميخائيل عواد

﴿ الذيل ﴾

(١) الخليج على ما في التاج : نهر في شق من النهر الأعظم وجناحا النهر خليجاه، وأنشد :

إلى فتى فاض أكف الفتيان فيض الخليج مده خليجان

وفي الحديث أن فلاناً ساق خليجاً ، الخليج نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه . والخليج شرم من البحر . وقال ابن سيده : هو ما انقطع من معظم الماء لأنه يجبذ منه وقد اختلج . وقيل الخليج شعبة تشعب من الوادي والجمع خلج وخلجان .

(٢) قال في التاج (٣ : ١٩٢ ، مادة : خ ا ر) : « الخور مثل الغور المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزَيْن ، والخور : الخليج من البحر ، وقيل مصبّ الماء في البحر ، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض . وقال شمر : الخور عنق من البحر يدخل في الأرض والجمع خؤور، قال العجاج يصف السفينة :

إذا انتحى بجؤجؤ مسمور
تقضي البازي من الصقور» وتارة ينقض في الخؤور

---

(١) رحلة ابن جبير (ص ٣٥ ط رايت ، ص ٣٩ – ٤٠ ، دي غويه ، ص ٧ – ٨ ، ط السعادة)

التّعريف والتّنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنهاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المقتطف ، يناير ١٩٤٥

المشتمل

سنة مضت

صورتان من الفن العربي في دمشق

١ — الكتب

أبو نواس	نقد	بقلم	محمد عبد الغني حسن
جمهور أرسطفانس	—	—	وهيب كامل
رسالة الملائكة	—	—	رفعت فتح الله
كتاب فتوح إفريقية والأندلس	—	—	زكي محمد حسن

كتب ظهرت :

تاريخ جرح — جبران خليل جبران — رسالة الهناء — الشوامخ — الغُرر التاريخية في الأسرة اليازجية نقد بقلم *

٢ — المجلات

«الأديب» العدد الخاص بأبي العلاء بقلم عبد السلام محمد هارون

٣ — المسرح

صفق الجمهور فصفق النقاد — زكي طليمات

٤ — الاستدراك

الامتاع والمؤانسة الجزء الثالث — مصطفى جواد

٥ — المسائل

الأديب وحرفته — بشر فارس

سنةٌ مضت

رضي نفر من إخوان الصفاء في ألفة الذهن والإخلاص لخلوص الأدب والائتمار بما يرسمه العلم أن يروا رأيي في استحداث هذا الباب ، بل شاءوا أن أكون صاحب توجيهه وتدبيره ، فشرفوني بثقتهم . وما أدري هل كنت عند حسن ظنهم بي . (ثم انضم إلى هؤلاء الاخوان بعد ذلك نظراء لهم فضلاء من مصر وغير مصر .)

وكان مقصدنا الأبعد إرضاءَ فئة من القراء هم شركاؤنا في الصفاء والاخلاص والائتمار ثم تهيئة جيل من القراء ينبذون ماسقط ورخص وزعم .

وقد تخيرنا هذه المجلة الجليلة الثابتة لتكون مجال قرائحنا . فأصبنا من أحد منشئيها — مدَّ الله في عمره — عونَ العالم وحث الرائد ، ثم من رئيس تحريرها ترحيباً وتفويضا .

هذا ، وكنا أجمعنا الرأي على أن يكون الأمر على سبيل التجربة مدة سنة كاملة . وهذه اثنا عشر شهراً ولت . فانتهت التجربة . على أنها دلَّت — وكم نفرح بالدلالة — أن شركاءنا من القراء كثير ، وأن المهذبين من الجيل الطالع منجذبون إلى مثل هذا الجد الصادق . فقد أقبل علينا هؤلاء وهؤلاء من أمصارٍ شتى وراسلونا وأيدونا . فأي ثواب خير من هذا الثواب ؟ وإن نحن أمسكنا اليوم عن المضيّ في هذا الباب وطويناه في المقتطف فانما ذلك إلى حين ، ريثما نتجمع لخطوة تلي التي خطوناها فيطَّرد النشاط .

ألا شكراً للمقتطف على حفاوته ، وسلاماً على من رجع الينا وركن .

ب . ف

١ – الكتب

• أبو نواس • بقلم عبد الرحمن صدقي

١٤ × ١٩ سم ١٩٠ ص عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٤

قيل إن أبا نواس لم يكن خليقاً أن يكتب في شانه في سلسلة موقوفة على أعلام الاسلام ، وقيل مثل هذا حين أخرج الأستاذ المازني كتابه في هذه السلسلة عن بشار .

وكأنَّ الأستاذ عبد الرحمن صدقي توقّع الاعتراض على هذا الاختيار ، فكتب مقدمة يعلل في شطر منها الحكمة في هذا الاختيار ويدفع عن نفسه وعن صاحب بشار وممَّن يعتزمون الكتابة في مثل هذه الشخصية الماجنة .

غير أن دفاع المؤلف لا يعفيه من الوقوع في اللوم . فإننا لم ننته بعد من الترجمة لأعلام الفقه والسياسة والفتح والفكر حتى نستبق الى الترجمة لأعلام الخلاعة واللهو . إلاّ أن المؤلف قد شاء ذلك ، فليكن له ما شاء ، وليكن لنا أن نقول ما نعتقد .

وهذا الكتاب — في الحق — لم تخرجه العجلة ، ولكن أخرجته الأناة وطول الصحبة لأبي نواس . ولهذا تجد فيه الصدق في الترجمة ، وحسن التصوير لحياة شاعر شاء القدر الساخر أن يجعله مثلاً للحياة العابثة في العصر العباسي الأول .

وطريق المؤلف في الترجمة طريق صحيحة شائقة . فهو لا يصحب الشاعر من يوم ولادته ، ولكن يذهب بعيداً الى أصله والعوامل الفعالة فيه ، ولا يزال يعرض ألوان حياته وألوان الحياة التي أحاطت به حتى يشيع فيه الفناء من طول ما مجن ، فيتذكر طاعة الله وهو نضو هزيل . . والمؤلف رفيق بصاحبه الشاعر ، بل قد يلتمس له العذر فيما وقع فيه ، وقد يحمل تعريضه بالدين على محمل الهزل واللهو لا محمل القصد والجد (ص ٦٧) .

وكان من الطبعي أن يذكر المؤلف شعراً للشاعر على سبيل الاحتجاج والاستشهاد . ولكن ما باله — غفر الله له — لا يتحرى وجه الصحة في الرواية فيكون بعض ما رواه غير مضبوط ، أو ناقصاً في الوزن ، أو جارياً على غير الرسم الصحيح للشعر . ولو جاز هذا من مؤلف فلن يجوز من عبد الرحمن صدقي الذي ظهرت عنايته بالشعر في كثير من مواضع الكتاب . وما بال من يهدف الى الدقة في صفحة من الكتاب يهملها في صفحة مواجهة ؟

ففي ص ٦٧ : اسقنيها ملاً وفا لا أريد المنصّفا
والصحيح : اسقنيها ملاً وفا لا أريد المنصّفا

وفي ص ٨٠ : قد رأينا عربيات يواصلن نبيطا
والرسم الصحيح للبيت : قد رأينا عربيا ت يواصلن نبيطا

وفي ص ٨٣ : لست أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان
والبيت ناقص وتمامه: مَن لستُ أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان

وفي ص ٥٩ : تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن منها المدار

والصحيح: « لم يتمكن بها المدار » . (راجع ديوان ابي نواس ص ٢٧٤ من طبعة آصاف، وغيرها في ص ٩٢ سطر ٩، ص ٩٩ سطر ١٦) .

ثم إن في شعر أبي نواس كثيراً من الألفاظ التي تنغلق على الافهام ، ففسر المؤلف بعضها وأغفل كثيراً منها . وكان خيراً للقراء لو فسرها جميعاً :

ففي ص ١٠٦ فسر كلمة « الجاثليق » وترك جارتها في البيت نفسه وهي كلمة « مطر بلميط » والذي أعرفه أنها تعريب لكلمة Metropolite ، وهو منصب رفيع عند المسيحيين .

وفي ص ١١٤ ترك البيت الآتي من غير تفسير ألفاظه :

نيط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطُن والبَرْنِ

والطُن : الرُطَب الأحمر الشديد الحلاوة . والبرني : نوع من التّمْر العراقي . وهناك كلمات كثيرة جدًّا في شعر النواسي لم يتعرض لها المؤلف بالشرح ، مثل هذه : قِرَاة القس . ص ١٠٥ ، وشمعلة ص ١٠٦، وآيين ص ١٠٨، ودير نهر أذان ص ١٠٧

وقد يفسر المؤلف الكلمة بأخرى أكثر منها غرابة ، كما فسر « الدهليز الأزجّ » « بالساباط » ، والساباط أدْخَل في الغرابة من الدهليز الأزجّ .

وما كان أتم الترجمة لو أن المؤلف عقد فصلاً في التهكم عند أبي نواس ، بدلاً من الاشارات العابرة إليه . أليس التهكم لوناً من ألوان نفسية الشاعر كان خليقاً باطالة الوقوف لديه ؟

ثم الوفاء يا أخي ! أيكفيك ويكفي أبا نواس أن تتحدث عنه في بضعة أسطر - ص ١٧٧ ؟

ولكنها ملاحظات لا تبخس قدر عمل المؤلف ، ولعله مستدركها فيما نرجوه منه من مستقبل الانتاج .

محمد عبد الغني حسن

• جمهور أرِسطُفانِس • بقلم فيكتور إرنبرج

The People of Aristophanes by Victor Ehrenberg

٢٤×١٧ سم ٣٢٠ ص وألواح أكسفرد ١٩٤٣

هذا الكتاب على اتجاه جديد في دراسة الأدب من ناحية علم الاجتماع ، وهذا الاتجاه وليد السنوات الماضية ، وروّاده النقاد الجامعيون في فرنسة وإنجلترة وقد أخرجوا أبحاثاً في الأدبين الفرنسي والانجليزي تدور على تعرف صفات البيئة وأخلاق أهلها على ضوء النصوص الأدبية . وفي أدبنا العربي الحديث مَثل على ذلك هو بحث في اللغة الفرنسية للدكتور بشر فارس عن « مجرى الأدب في مصر سنة ١٩٣٨ » (١)

أما في نطاق الأدب اليوناني القديم فالرائد هو الأستاذ طُمسُن Thomson بكتابه الجليل « إيسخيلُس والآثينيون » (لندن ١٩٤١) ، وتلاه الأستاذ لِتِل Little بكتابه « الأساطير والشعب في المسرحية الآثينية » (أكسفرد ١٩٤٢) ، والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته الآن حلقة في هذه السلسلة الجديدة .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ السابق للتاريخ القديم في جامعة براهة (تشيكوسلوفاكية) . وقد أفرد مقالات لدراسة الملابسات الاجتماعية والاقتصادية في آثينة معتمداً كل الاعتماد على النصوص المتبقية من « الكوميدية » (الأضحوكة المسرحية) فجاء كتابه مرجعاً لدراسة أرسطفانس والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لآثينة جميعاً .

وتنفرد الكوميدية في أنواع الأدب في ما تسوقه من شواهد على أحوال البيئة بهذه الميزة : أن هذه الشواهد تجري في الكوميدية عفواً دون عمد ، فهي بذلك فوق التجريح وفي ذلك يقول المؤلف : « إن الكوميدية وحدها دون سائر أنواع الأدب تعرض أدلة اجتماعية واقتصادية لا غرض من ورائها سوى إحداث الجو الفني المسرحي » (ص ٦) .

ونحن نرى أن الحيطة واجبة هنا على كل حال ، فان تصور الجو الفني المسرحي يتوقف إلى

---

(١) القاه في مؤتمر المستشرقين بمدينة بروكسل سنة ١٩٣٨ ونشرته مجلة القاهرة La Revue du Caire (أغسطس ١٩٤٢) ووصفته المقتطف (دسمبر ١٩٤٢ ص ٥٤٠) قالت : « وقيمة هذا البحث في طرافة المعالجة وملخصها أن الكاتب يستمد مجرى الحياة الاجتماعية من التآليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والثقافية والارادية وتبيين النزعات المختلفة من ثنايا الكتب »

حد بعيد على وجهة نظر المؤلف المسرحي . هذا وثمة صعوبة أخرى إذ ليس هناك من سبيل إلى التفرقة بين النصوص التي يمكن أن نقف عند المعنى الحرفي في تأويلها والتي ترد مشوهة ممسوخة لأجل إثارة الضحك والسخرية . ولكن مؤلف الكتاب كان حصيفاً في جل ما تناول من شواهد فقد تحذَّر وتحوَّط .

هذا ، وإن النتائج التي وصل إليها المؤلف — على حداثة الطريقة التي اتبعها في تناول الموضوع — لا تروع القارئ المستطلع إذ ليس فيها من جديد ، والسبب أن كل من عنوا بدراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في آثينة القديمة لم يهملوا النظر في مسرحيات أرسطفانس ولم يغفلوا شاهداً من شواهدها ، ولو أنهم لم يدرسوها تلك الدراسة المستفيضة . ونحن لا نستطيع أن نتخيل صورة للقانون اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد لا تكون مستقاة في بعض دقائقها من مسرحيات أرسطفانس .

وهناك مسائل معدودات نخالف فيها المؤلف ، فقوله إن المحلَّفين كانوا يقيدون أسماءهم في مقاطعات مختلفة « ليحصلوا على أكثر من مرتب واحد » (ص ٢٤٢) لا يبدو صحيحاً لنا ، إذ أنهم كانوا يلجأون إلى هذا المسلك ، ليضمنوا اختيارهم في إحدى الدوائر .

ولقد عجبنا للمؤلف كيف يهمل الاستشهاد بالمقطوعة (سطر ١٥٣ — ١٧٠) من مسرحية « آخارنين » في معرض حديثه عن استخدام الجنود المرتزقة في الحرب الپيلوپونيزية (ص ٢٢٣) ، فالمقطوعة تدور على كره أهل آثينة لهؤلاء الجند ونفورهم من استخدامهم .

• • •

وبعد ، فهل نحن نرضى عن هذا الاتجاه الجديد في الدرس ؟ أليس من التطرف أن نعد التاريخ الاجتماعي موضوع مسرحيات أرسطفانس ، كما يرى المؤلف (ص ٨٠ وما بعدها) وهل أراد أرسطفانس حقّـًا لمسرحياته أن تكون وثائق للتاريخ الاجتماعي ؟ (ص ٩٠) . نحن لا ننكر أن بعض مسرحياته وعلى التخصيص پلوتُس Plutus كانت معنية أشد العناية بالمشكلتين الاجتماعية والاقتصادية ، إذ تناولت مسألة العدل الاجتماعي وإعادة توزيع الثروة وأثر شهوة الإثراء في الأخلاق . ونحن نوافق أصحاب هذه المدرسة الحديثة على أنه ليس أجدى على دراسة الأدب اليوناني القديم من تبين الصلة الوثيقة بينه وبين أبعد ما يشغلنا الآن من أحداث . ولكن ليس معنى هذا أن نقحم الآثار الفنية الرائعة في مجموعة الوثائق التاريخية ، ولا أن نستقبل هذه الآثار في غير الوجهة التي رسمها أصحابها الخالدون .

وهيب كامل

• رسالة الملائكة • للمعري

بتحقيق وشرح محمد سليم الجندي

١٧½ × ٢٥ سم ٣٠٢ ص دمشق ١٩٤٤

قد كان هذا الكتاب دفين المكتبات الخاصة ، ثم انتقل إلى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، على حين تناقل الأدباء قطعة منه ظنوها « رسالة الملائكة » . وهذه الرسالة قد طويت تحت أجنحة هذا العنوان ، لأن أبا العلاء ألَّفها في سن الأشياخ ، فتخيل في مطلعها حواره للملائكة يحاول أن يشغلهم بتصريف الألفاظ . . . انظر قوله « والظعن إلى الآخرة قريب ، أفتراني أدافع مَلَكَ النفوس فأقول أصل ملك : مألك ، وإنما أخذ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلب ، ويدلنا على ذلك قولهم : الملائكة ، في الجمع ، لأن الجموع تردّ الأشياء إلى أصولها ، وأنشده قول الشاعر :

فلست لأنسيّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

فيعجبه ما سمع ، فينظرني ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض قلت : وزن مَلَك على هذا القول مَعَل ، لأن الميم زائدة . . . قال عمر بن أبي ربيعة : . . . وأنشد أبو عبيدة : . . . فيقول الملكُ : من ابن أبي ربيعة ؟ وما أبو عبيدة ؟ وما هذه الاباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، وإلاَّ فاخسأ وراءك ، فأقول أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، فأقيم الدليل على أن الهمزة زائدة فيه ، فيقول الملك : هيهات ليس الأمر إليّ ، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أم تراني أداري منكراً ونكيرا فأقول : . . ؟ » (ص ٥ — ٩) .

وهذه الرسالة — وإن بدئت بالتواضع المغرق — آية على علاء أبي العلاء في علوم العربية ونفاذ رأيه في طرائد اللغة والتصريف ، حتى إنه يوجه الكلمات الأعجمية في المعرض العربي فيكاد يخفي سَحْنتها الأعجمية (١) .

وقد جهد الاستاذ الجندي في بحث الرسالة جهداً موفوراً ، وبث في مسائلها شرحاً مشكوراً ، ولعله يتقبل أن نسوق إليه بعض الخواطر التي ساقها نظر الرسالة وشرحها .

---

(١) قد كان أبو العلاء يعلم أن الاعجمي المعرب لا يجري مع الاصول العربية ، ويمثل ذلك رد على أبي إسحاق الزجاج (« رسالة الملائكة » ص ٣٨) ولكنه إذا فاض علمه بالعربية طغى على بعض الكلمات الاعجمية .

جاء في ص ١١٦ : « أبو داود (كذا ذكره مرتين) جارية وقيل جويرية بن الحجاج من إياد ابن نزار بن معد ، شاعر قديم ، يقال إنهُ أوصف الناس للفرس ، وأكثر شعره في وصف الخيل » ، والذي نعلمه أنه « أبو دُوَاد » (انظر القاموس ، وشرحه ، والأغاني ، والشعر والشعراء ، والمؤتلف والمختلف ، والخزانة ، وغيرها) . والبيت الذي ذكره أبو العلاء في هذا الموضع جاء في موضعين من الصحاح واللسان والتاج (ج و ب ، ش و ه) ونسبه أصحابها إلى أبي دواد ، ولولا ما صنعه الشارح في آخر الرسالة لحسبناه من الغلط المطبعي ، ولكنه ذكر في « فهرست أسماء الأعلام » (ص ٢٨٨) ما نصه : « جارية بن الحجاج (أبو داود) ١١٦ » ، وذكر في ص ٢٩٠ ما نصه : « أبو دؤاد الإيادي ٧٤ ، ... » .

وجاء في ص ٥٩ قول أبي العلاء : « ولو قال قائل : ما وزن أُنْ ؟ (وهو الأمر من آن يؤون ، أي رفق في السير) لقيل : وزنه فُلْ وأصله أفْعُلْ ، لأنه من باب قتل يقتُل ..... ولو نطق بذلك على الأصل لقيل أُووُنْ ، بواوين ، الأولى منهما كانت همزة فجعلت واواً . . . وكذلك قالوا : رُويَة ، فجعلوا الهمزة واواً ، ومن قال رُيَّة في رؤية ، ألزمه القياس أن يقول أُوٌّ ، فيدغم » .

وهذا موضع وعر من مواضع التصريف يحتاج إلى ضبط وإحكام ، فما « أُوٌّ » ؟ وهل هذا تنوين ؟ والصواب : أُوُّنْ .

وجاء في ص ٣٠ : « المطيبون خمس قبائل : بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزي وبنو تيم وبنو زهرة » . وهؤلاء أربع ، فأين الخامسة ؟ لعله سقط منه : « وبنو الحرث بن فهر » .

ولقد كنا نود أن يستكمل الأستاذ الجندي أشياء ذكرها في شرحه دون ترجيح أو رجع إلى الأصول . جاء مثلاً في ص ٢٤ البيت :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجتزّ شيحا

وذكر الأستاذ الجندي نسبته إلى يزيد بن الطثرية وإلى مضرس بن ربعي الأسدي ، ثم ذكر شيئاً من ترجمة يزيد . ولعلّ الأستاذ يعلم ردّ العلماء على نسبة البيت إلى يزيد ، فلو رجح نسبته إلى مضرس وذكر شيئاً من قصيدته التي منها هذا البيت لكان أقرب إلى جنى التحقيق :

وضيفٍ جاءنا والليلُ داجٍ وريحُ القرّ تحفزُ منه روحَا
فطرت بمُنصُلي في يَعمَلاتٍ خفافِ الوطْءِ يَخْبِطْنَ السَّريحَا
فعَضَّ بساق دَوْسرَةٍ عليهاَ عتيقُ النّيّ لم تحفزْ لقُوحَا
وقلت لصاحبي لا تحبسني بنزْعِ أصوله واجتزّ شيحَا

وجاء في ص ١٢ قول أبي العلاء : « وقد ذكر الفارسي هذا البيت مهموزاً :

أحب المؤقدين إلي مؤسى   وحزرة لو أضاء لي الوقود

وعلى مجاورة الضمة جاز الهمز في : سوق ، جمع : ساق ، في قراءة من قرأ كذلك » . وكان كل ما ذكره الأستاذ الجندي في هذه القراءة قوله : « نسبها البيضاوي إلى ابن كثير » وكان خيراً للأستاذ أن يذكر قول ابن جني — تلميذ الفارسي هامز البيت — في « سر الصناعة » (وقد ذكر كلام شيخه أبي علي) : « وروى قنبل عن ابن كثير ، بالسُّؤْق : فهمز الواو ، ووجه ذلك أن الواو وإن كانت ساكنة فإنها قد جاورت ضمة الميم ، فصارت الضمة كأنها فيها ، فمن حيث همزت الواو في نحو : أُقِّتَتْ وأجوه ، لانضمامها كذلك كان همز الواو في : المؤقدين ومؤسى ، على ما قدمناه » .

وجاء في ص ٢٧ ذكر « سفرجل » وتصغيره ، ونقل الأستاذ عن سيبويه في موضعين ، وكان خيراً أن يتم ذلك بذكر كلام سيبويه في الكتاب (ج ٢ ص ١٠٧) .

وكذلك كنا نحب أن يراجع الأستاذ الباحث تصحيح الطبع ، لتقل الأغلاط المطبعية ، وليتنبه القارئ عليها إذا كان لها جدول في آخر الكتاب ، ونحن لا نعنى بعديدها هنا ، فإن البحث أجلّ من ذلك ، ولكننا نذكر منها مثلاً :

جاء في ص ٥٥ : « لا أنهم ... السنين ... الثواب » والصواب « لا أتهم ... الستين ... الثوابّ » ... الخ . وكذلك كنا نحب أن يضع الأستاذ الجندي من علائم الترقيم ودلائل الفصل في مفاصل الكلام ما يعبد طريق النظر إليه . وللأستاذ عندنا تقدير كريم .

رفعت فتح الله

أستاذ النحو بكلية اللغة العربية بالازهر

• كتاب فتوح إفريقية والأندلس • لعبد الرحمن بن عبد الحكم

نشره وترجمه : جاتو

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne
édité et traduit par Gateau
١٤½ × ١٩½ سم   ١٦٣ ص   éditions Carbonel   الجزائر ١٩٤٢

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة العربية الفرنسية — Bibliothèque Arabe Française التي تصدر بإشراف المستشرق الفرنسي الأستاذ هنري بريس Henri Pérès والتي أُريد بها نشر بعض عيون المؤلفات العربية ، ومع كل منها ترجمة إلى الفرنسية ومقدمة

في سيرة المؤلف وآثاره العلمية فضلاً عن بعض الشروح والتعليقات .(١)

ومؤلف الكتاب هو عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ المصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) والذي كان مرجعاً ثميناً لكثير من أعلام المؤرخين المصريين ولا سيما الكندي والسيوطي .

عني ابن عبد الحكم بالفتوح الاسلامية فكتب فيها مؤلفاً كبيراً سماه « ذكر فتوح مصر » وقد وقف على نشره الأستاذ تري Ch. Torrey سنة ١٩٣٢ .

وختم المؤلف هذا الكتاب بالكلام على فتح إفريقية والأندلس بوصفها امتداداً لتاريخ مصر ، ولا عجب فابن عبد الحكم مؤرخ مصري قبل كل شيء . ومع أن كلامه على تلك الفتوح لم يكن باسهاب عني به المستشرقون الفرنسيون المشتغلون بتاريخ إفريقية حتى أعادوا نشره في الكتاب الذي نحن بصدده اليوم .

وكتب الأستاذ جاتو Gateau تصديراً لهذه الطبعة تحدث فيه عن غموض حوادث الفتح العربي في إفريقية والأندلس وعن سيرة ابن عبد الحكم وعن كتابه ومراجعة المؤرخين الذين نقلوا عنه وتأثروا به ، كما عرض لسائر المصادر المعروفة في دراسة الفتح الاسلامي في إفريقية . ونحن نرى أنه اعتمد في ما كتبه بشأن سيرة ابن عبد الحكم وآثاره على ما جاء في المقدمة التي عملها المستشرق الانجليزي جِسْت Guest لكتاب « الولاة والقضاة » للكندي . ويلي ذلك التصدير نصوص ابن عبد الحكم في ذكر فتح برقة ، وذكر أطرابلس ثم استئذان عمرو بن العاص عمرَ بن الخطاب في غزو إفريقية ثم ذكر فتح إفريقية ومن كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه ثم ذكر فتح الأندلس . وإزاء كل صحيفة من النص العربي ترجمتها بالفرنسية .

وختم الناشر الكتاب بطائفة من الشروح والتعليقات أشار فيها إلى بعض المراجع ، ووازن بين نصوص ابن عبد الحكم ونصوص جاءت في مراجع أخرى وعرّف فيها ببعض من جاء ذكرهم في النص العربي ، وأتى بغير ذلك من البيانات التي تعين على فهم الكتاب ، وعمل الفهارس التي تيسر الانتفاع به . والحق ان الترجمة الفرنسية دقيقة وحسنة ، وإنّ جهد الناشر هنا جليّ وجدير بالثناء .

زكي محمد حسن

• • •

---

(١) ظهر في السلسلة جزءان ، هذا المنقود فوق ثم « فصل المقال » لابن رشد وهو في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (سنة ١٩٤٢) . وحسبنا اليوم هذا التنويه .

• تاريخ جرح • بقلم **فؤاد الشائب**

١٢×١٨ ١٨٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

تدل هذه المجموعة من الأقاصيص على أن فن الحكاية في الشام ـ والمؤلف منها ـ آخذ في الاستواء . ففي هذه الأقاصيص معرفة بأصول المدخل والمخرج والتفصيل والتحليل، وإن كان الذهاب في التفكير والتوجيه غير حافل بعد ولا ظاهر . وأما العبارة فمتدفقة على تلوّن ، وإن كانت على اكتظاظ في التركيب .

*

• جبران خليل جبران • بقلم **ميخائيل نعيمة**

١٨×٢٥ ٣٠٤ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

من الفائدة أن نخبر القراء بأن هذا الكتاب أُعيد طبعه في بيروت ، فقد نفدت نسخ الطبعة الأولى أو عزّت . وليس في هذه الطبعة مزيد، ولم يلتفت المؤلف إلى ما أثارته الأقلام يوم خروج الطبعة الأولى ، فلم يعلّق ولم يناظر ، وهذا يدل على شدة اطمئنانه إلى ما كتب أولاً . ومن دأب الأستاذ نعيمة أن يكتب وحليفه الاخلاص . وقد نقدت المقتطف هذا الكتاب حين ظهر ، فهل نزيد أنه من خير النماذج في السيَر ؟

*

• رسالة الهناء • للمعري شرح وتحقيق **كامل كيلاني**

١٣½ × ١٩½ ٢٩٦ ص دار الكتب الاهلية القاهرة ١٩٤٤

في هذه الرسالة يبين المعري كيف ينتقل الطبع الانساني من الكذب إلى الصدق . وينحو في التبيين منحى التمثيل ، شأنه في كثير من رسائله ومن صفحات في « الفصول والغايات » . والرسالة جدّ صغيرة ، إلاّ أن الناشر صنع لها مقدمات وترجمات وحلاها بحواش وتعليقات بحيث أخرج سفراً لم يكن لأحد أن يظنه خارجاً في هذا الحجم . وفي هذه الاضافات لفتات وتنبيهات (هوامش نص الرسالة ص ٢٢١ — ٢٦٤) . ولاشك أن الشارح جد في قراءة ما انتهى إلينا من آثار أبي العلاء ، ولا شك أنه رغب في تقريبها إلى الأذهان.

غير انه مال إلى التطويل الترديد (قدم للرسالة في ثلاثة فصول : التمهيد والشرح والترجمة، علاوة على الحواشي) ورضي بفضول الكلام . من ذلك ترجمته لفاتحة الرسالة بهذه الكلمات : « يستهلّ أبو العلاء رسالته بالهناء ، هناء يقرن به نور وضياء ، وحسن وبهاء ، ورفعة وسناء ، وسمو واعتلاء . لا بل يستهلها بآيات من التهاني، يُرغم لها أنف المبغض الشاني » . ثم دونك نص فاتحة الرسالة : «هناء يقرن به نور وسناء . بل تهانىء يُرغم لهن الشانىء » وفي الهامش يعود الشارح فيقول : « الهناء : بهجة وفرح — نور وسناء : رفعة وعلو» .

والرأي أن هذا غلو في التقريب ، حتى الأحداث ليست بهم حاجة إلى مثل هذا . والذي عطف بنا إلى تصور الأحداث أن الشارح يجتهد في شكل الكلمات كلها ، حتى الحروف مثل الواو وفي وإلى . وإذا هو قصد إلى إرشاد الاحداث إلى أبي العلاء — وهذا مقصد حسن حقا — فيا ليته لم يؤثر التزام السجع في كثير من فقره ، فهذا أسلوب قد ولّى زمنه .

والرسالة على كل حال غنيمة ، والتحقيق حسن ، وفي الشرح فوائد .

*

• الشوامخ • الجزء الثاني بقلم **محمد صبري**

١٦½ × ٢٥ سم ١٥٢ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

يحلو للأستاذ محمد صبري الدكتور في الآداب من السربون أن يعنى بالنقد الأدبي . وله فيه اجتهاد ، ذلك أنه ينظر في « الشعر الجاهلي » وهو موضوع هذا الجزء وكذلك في النثر الجاهلي بعين تدربت على قراءة الروائع في الآداب الاوربية وتصفح آيات الفن من نحت وتصوير . ومن هنا موازناته ولفتاته . ومن هنا أيضاً تركه المأثور من أقوال النقاد السابقين إذ تلتقي لديهم ملكات الشعراء في عبارات متعادلة أو متجاورة . فهو يبحث عن الخصائص والميزات ليفرز عهداً من عهد وطبقة من طبقة . وفي ذلك فضل وجدّ .

غير أنه يسرف أحياناً ، في ما يبدو لنا . من ذلك قوله إن وصف أبي ذؤيب الهذلي لصراع الفارسين في قصيدته العينية « خير ما جادت به قريحة الشعراء على الاطلاق » (يعني من العرب والافرنج ،ص ١٤٦) ، ومهما يكن من إسراف فان المؤلف أحسن في تبصيرنا روعة هذا الوصف وما وراءه من قوة ، وحركة ، وصورة قد شبهها بلوح من مرقم المصور الاسباني فيلاسكويز . ومن الاسراف أيضاً عقد موازنة بين قول حميد الراجز وهو يصف فؤاده فيقول :

كأن قلبي والفراق محذور وقد جرى طائر بين مزجور
غصن من الطرفاء راح ممطور

وبيتين للشاعر الفرنسي ڤرلين ، هما :

Il pleure (non : pleut) dans mon cœur comme il pleut sur la ville

وقد ترجمهما المؤلف هكذا : « وكأني بالمطر يسقط في فؤادي كما يسقط على المدينة» (ص١١١) . والترجمة عندنا هي : « إن في القلب بكاء (لا مطراً ، كما روى المؤلف وترجم) كالمطر الساقط على المدينة » .

*

• الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية • بقلم عيسى اسكندر المعلوف

١٢ × ١٨½ سم ١٢٨ ص مطبعة الرهبانية المخلصية صيدا (لبنان) ١٩٤٤

المؤلف عناية خاصة بتاريخ الأسر اللبنانية والشامية ، وله في هذا سفر ضخم لم يُنشر بعد، أعانه على تصنيفه ذاكرة قوية وخزانة كتب زاخرة . ومن طلائع ذاك السفر الجليل الجزء الاول من هذه الرسالة وهي موقوفة على سِيَر المشايخ اليازجيين في أسلوب مختصر ، همّه الرواية والنقل .

واليازجيون مشهورون في جميع الأقطار العربيـة ، عَلمهم الشيخ ناصيف ونبراسهم الشيخ إبراهيم . وفي هذا الجزء سرد لأخبارهم الاجتماعية والأدبية ، وفيه فوائد وطرائف، وفيه على وجه التخصيص شعر ونثر مطويان وإشارات إلى مخطوطات ومفقودات نفيسة، من ذلك كتاب « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » وهو معجم كان الشيخ ابراهيم شرع في وضعه ولم ينجزه، وقد كان سلك فيه المأنوس من كلام قدماء العرب بأسلوب علمي وتطرق فيه إلى موضوعات المولّـدين والمحدثين .

ومثل هذه الرسالة يُمدّ التأليف في تاريخ الأدب الحديث لما تضم من الأخبار المجهولة والآثار ، فهي من باب التنقيب لا من باب النقد .

*

• قصة البنيسلين • بقلم مصطفى عبد العزيز

١١½ × ١٦½ - ١٥٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

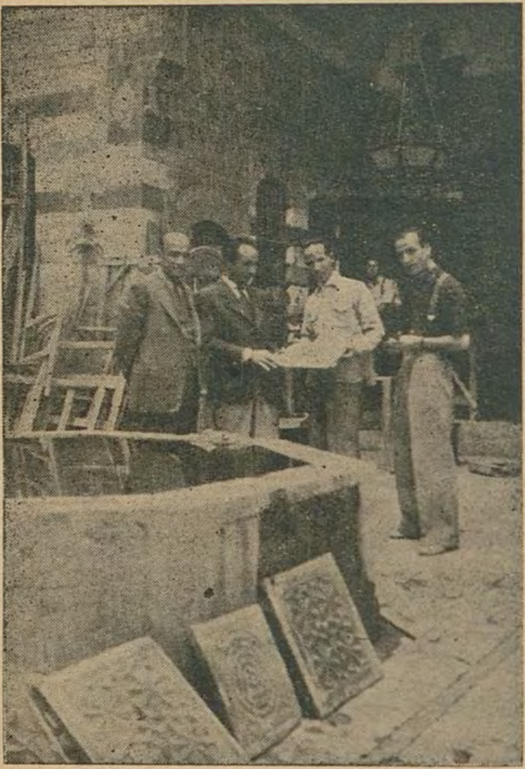

نماذج لحشوات
قديمة من الخشب
المصنوع في الشام
(المئة الـ١٥ والـ١٦)
مجوّفة وملوّنة

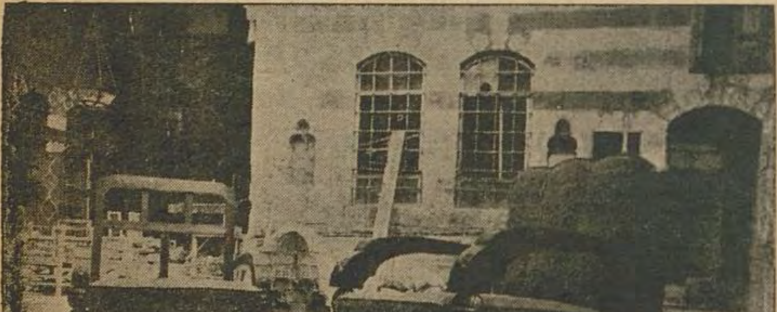

أنموذج مستحدث
من المقاعد ، خشبها
مخروط ومحفور

في مصنع المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان

٢ - المجلات -

« الأديب » العدد الخاص بأبي العلاء حزيران (يونيو) ١٩٤٤

يقرأ الباحث في كثير من الكتب التي تطرق موضوعاً خاصًّا ، فلا يجد فيها تلك اللذة ولا تلك الأصداء المتجاوبة التي تتردد في ثنايا مجلة تنتظم موضوعاً واحداً . ولعل ذلك لتعدد الأقلام التي تتناول بأفكارها وقراءاتها المتباينة ذلك الموضوع وتنظر إليه من زوايا متعددة . وقد جمعت مجلة « الأديب » البيروتية أبحاثاً طريفة حقًّا ، منها : « أبو العلاء المعلم » و « سر أبي العلاء » و « القرامطة وأثرهم في أدب المعري » و « أبو العلاء المفكر الحر » و « لغة المعري » و « رسالة الغفران ومنابعها » و « فصل من كتاب الأيك والغصون » .

وكان الدكتور إسحاق الحسيني موفقاً في إظهار الرسالة التي اضطلع بها أبو العلاء . المعلم والنشاط الذي كان يشيعه فيمن حوله من الطلاب والمريدين . وأما « سر أبي العلاء » فهو فرض ساقه الأستاذ الخولي ، يذهب إلى أن أبا العلاء إنما منعه من الزواج مانع العجز الطبيعي ، وأن السر إنما يرد « إلى سبب مادي طبيعي لا لزهد ولا لفلسفة » . ولكن كيف نتصور تلك العبقرية المتدافعة المتزاحمة ، في تلك الرجولة الناقصة ؟ إن العبقريات الممتازة لم تكن يوماً في ضعاف الرجال . بل إني لأذهب إلى أن أبا العلاء كان من قوة طبيعة الرجل بالمكان الذي يحمله على التقلل من المطعم والمشرب ، ليكفّ عوارم هذا الميل ، ويصير إلى حال من العفة وضبط النفس . وليس فيما ذكره الأستاذ من شواهد اللزوم ما ينهض حجة صالحة لدعواه الطريفة .

وقال الدكتور أسعد طلس في مقاله القيم « القرامطة » : « وأنا مؤمن أننا حين نعثر على كتاب المجالس للمؤيد في الدين أبي النصر (هو أبو نصر) بن أبي عمران داعي الدعاة . . . » وكتاب المجالس المؤيدية لم يفقد ، فمنه نسخة بالهند أخذت منها صورة مودعة بخزانة جامعة فؤاد الأول . وقد اقتبست لجنة أبي العلاء بالقاهرة نصًّا منه في كتابها « تعريف القدماء بأبي العلاء » (القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٨٧) .

إنا لنهنىء « الأديب » بمجهودها البارع ، وندعو أدباء مصر أن يوثقوا من صلتهم بمجلات الأمم الشقيقة ، ليتحقق بذلك ما نأمل من توطيد العلاقة بين الأمم العربية وتدعيم التقارب .

عبد السلام محمد داود

٣ - المسرح

لما أنشئ هذا الباب شُقت فيه كوة نحو المسرح إذ جعل من مقاصده « مراجعة ما يخرج في الفن أداء » . والمسرح من أسباب الثقافة الحق ، ومن شواغل الحس الناعم . غير أن مسرحية واحدة لم تستحق المراجعة (١) . وكانت الفرقة المصرية (وهي حكومية) مما عقد عليه الامل . غير أنها آثرت خطة أرادت بها أن ترضي طبقات شتى لتضمن إقبالاً كبيراً على ليلاتها ، وفي ما أدته ما يقصيها عن مرتبة فرقة رسمية وما يحرف الغاية التي أنشئت من أجلها أولاً . وقد أذعت من راديو الشرق ببيروت في خاتمة شهر اكتوبر لهذه السنة رأيي في هذه الفرقة ، فنبهت الاذهان الى فساد خطتها على أيدي الموجهين والمؤلفين وبعض النقدة . واليوم أحمد الله على ثورة الاستاذ زكي طليمات نفسه ، فقد راجعته جلالة الفن الخالص ، والاناء الأسن طافح بين يديه .

ب . ف

صفق الجمهور فصفق النقاد

قدمت الفرقة المصرية في الشهر الماضي مسرحية عنوانها « شارع البهلوان رقم ٧٧٧» في مسرح دار الأوبرة الملكية بنجاح لم يألفه مسرحنا منذ عهد بعيد ، فقد تجاوز دخل هذه المسرحية في الأسبوعين الأولين خمسمئة والفين من الجنيهات . الجمهور مقبل على مشاهدتها بحال يذكرنا رواد المسرح في باريس ولندن وبرلين ، فالصف من الجمهور المصري في مسرحيتنا هذه ينتظم تجاه شباك التذاكر ويطول حتى مشارف الطريق متحوياً كالأفعوان ، وصارف التذاكر يعلن عن نفادها قبل ميعاد رفع الستار بساعات ، وقد اتخذ صوته نبر السيد الآمر غير الآبه بشيء ، وإدارة الفرقة تزيد في عدد حفلات إضافية ، ولجنة ترقية التمثيل العربي ، وهي اللجنة المشرفة على الفرقة ، يتبادل أعضاؤها أنخاب الابتهاج والتفاؤل في صحة الفرقة ونجاحها ، والذين يشتركون في تمثيل الرواية كلهم في طرب ، والذين لم يشتركوا في كمد إذ يعز عليهم أن تحظى الفرقة بنجاح لا يكونون من بواعثه وعوامله . . . ولا يخفى أن لحسد المهنة منطقاً لا يعرفه المنطق السليم ، ولا سيما أن الممثلين المصريين يحيون بغرائزهم أكثر مما يعيشون بأذهانهم ، ويعملون بوحي التفردية فوق ما يعملون بروح التماسك .

---

(١) سوى مسرحية « يوليس قيصر » لشكسبير ، أخرجها زكى طليمات هذا الخريف ، فما استطعت الكتابة فيها لغيابي عن مصر في ذلك الفصل .

وعلى الجملة ، إن جنبات المسرح المصري ممثلة في هذه الفرقة المصرية تدوي بانفعالات كان طبيعيـًا أن تمتد إليّ وأنا مخرج الرواية ومقوّم غير المعقول والمقبول فيها ...

وأصارح القارئ بأن ما بنفسي من جراء هذا كله إنما هو أخلاط من العجب العاجب ، والأسف المرير ، والتشفي السادر ، وسرعان ما تتبلور هذه الانفعالات عن غيظ حانق كلما أراد نفر تهنئتي باخراج هذه التحفة الفنية ، كما هي في زعم المهنئين (!)

وأغالط نفسي من حيث إن إجماع الناس على اعجاب لا يجوز أن يكون على شيء باطل أو زهيد تافه . فأعود الى المراجعة والتأمل ثم الى سؤال نفسي : هل أتى التأليف المسرحي في مصر بهـذه المسرحية رائعته المنتظرة ؟ وهل أتيت حقـًا في إخراجها من الجديد الموفق والطريف الممتاز ما أستأهل من أجله التهنئة والثناء ؟

وهل أصبح جمهورنا ، في طرفة عين ، من رواد المسارح الأمناء حتى يقبل على دور التمثيل ينشد غذاء الروح ؟ ثم أين هو غذاء الروح في « شارع البهلوان ، ٧٧٧ » ؟

ولكن سرعان ما أفيق بعـد أن يشرع الضمير الأدبي ميزانه وتنبري مقاييس الفن ومعاييره تراجع وتحاسب ، وها أنذا أقرر يقين النفس فأقول : لا شيء من هذا ألبتة ... « وهذه عقدة المسألة » كما يقول (هملـت) .

إن مسرحية « شـارع البهلوان رقم ٧٧٧ » من الأدب الماحل الذي يعوزه الدسم والخصب وهي من سقط متاع الفن باعتبار أنها « ڤودڤيل Vaudeville » ، أي من اللون الفكاهي الهزيل من حيث تحليل شخوص مسرحياته وتقويمهم التقويم الانساني الصحيح ، والمنحرف عن شرعة (الكوميدية) الخلقية من حيث عوامل التشويق فيها ، وأما دوافع الضحك فتقوم على المفاجآت المفتعلة ، والنكات المتكلفة والعبـارات المتبّـلة التي تلذع ولا تخلف ما يلوكه الذهن أو يردده الخاطر ليتغذى به .

وإخراجي الرواية ليس فيه جديد ولا طريف ، فقد أخذت فيـه بالنزعة الواقعية الخالصة ، وذلك أن الرواية خلت من عوامل الايحاء والتركيز وجرت سياقة مشاهدها على نمط راتب لا يشحذ خيال المخرج فيبعثه على التوليد والخروج على الطوق التقليدي .

بل لقد تورطت — مكرهاً — في خطإ فني ، فقد جاءت مناظر الرواية ، على بساطتها ، لا تعرض الصبغة المحلية للرواية ، بل لا توحي بصبغتها النفسية ، فقد كانت كلهـا مناظر حُجُرات « دُوَلية » مما يشاهد في بيوت أوربة . وليس فيها ما يشير إشارة واضحة إلى طابعهـا المصري . والاثاث كذلك نمطه أوربي قديم ، (طراز لويس السادس عشر

ولويس الخامس عشر) ، وليس بينه وبين رسم المناظر علاقة من حيث الطراز ، فقد نسيت أن أقول إن مناظر الرواية مرسومة وفقاً لشرعة الفن الحديث . هذا والذوق السليم والحس الصائب — وبهما يجب أن يأخذ المخرج في عمله — لا يستسيغان حجرة تخضع في تصميمها وتلوينها إلى أحدث فن، وأثاثاً يرجع إلى عهد طابعه من مئات سنين . أكرهت على التورط في هذا الخطأ عالماً وعامداً ... والصمت عما خفي خير .

والممثلون والممثلات ، وإن أدوا أدوارهم في حذق ومهارة ، فإنهم لم يأتوا بالطريف الذي يشد اليهم الجمهور هذا الشد العجيب ويبعثه على الإغراق في الضحك حتى يصرخ منه الوقار . وإني أتجاوز عن نقد الممثلين والممثلات بالمقياس الذي اعتمدته في نقدي للمسرحية لأنهم نهضوا بما حملوه أحسن مما نهضت بحملي ... وأيضاً لأن أجسامهم هشة رقيقة .

إذن لم كل هذه الانفعالات من ابتهاج وحسد ؟ ومن أين يأتي هذا الاقبال الكبير على المشاهدة ؟ وكيف نجم هذا الاجماع على الاشادة بفتنة المسرحية وروعة مواقفها ؟

الجواب يسير ومرير . . إن المسرحية صادفت هوًى من الجمهور ... إذ أجابت رغبته في التفكهة وأشبعت نزعته إلى التسلية الخفيفة الباسمة في هذه الآونة التي اسودّ فيها كل شيء حتى الرغيف بفعل الحرب ، وإذ تملقت بعض خصائص الطبع المصري في ناحية من فواحيه السهلة اللينة . إذن : صفق الجمهور فصفق النقاد ، وأقبل الجمهور على المشاهدة فأقبل النقاد على الكتابة مهللين مستبشرين ، واطرد امتلاء قاعة دار الأوبرة بالنظارة فطربت الفرقة وزُهيت إدارتها . . ولو لم يقبل الجمهور هذا الاقبال لانبرى النقد بزعم أن الرواية لم تنجح ، وأن المخرج لم يوفق ، وأن الممثلين لم يحسنوا تلبس أدوارهم . ولو لم يقبل الجمهور لاغتمت إدارة الفرقة . وعلى الجملة لو لم يقبل الجمهور لما ذاع صيت للرواية . ولا يهم أن تكون الرواية سقيمة المبنى هزيلة المعنى ، خالية خاوية مما يثقف ويهذب ويصلح ويشق الأفق الفسيح للتفكير المثمر، ليس فيها من شيء تهفو له الأذن ، ويشد إليه النظر سوى فرقعة الصواريخ : وهي أصوات وأضواء سرعان ما تخفت وتخبو وتمّحي من عالم الرؤية والسمع .

وإحقاق الحق يقضي بأن نصرح بأن لا لوم على الجمهور إذا أقبل على مشاهدة المسرحية التي تجاوب نزعاته في الساعة التي هو فيها ، وأن لا تثريب على إدارة الفرقة إذا جعلت بعضاً من رواياتها للسواد الأعظم من الجمهور حتى تكفل الإقبال على حفلاتها ، وبهذا يتيسر لها أمر تقديم المسرحيات الرفيعة مبنىً ومعنى ، وهي مسرحيات لا ترضي إلا الخاصة ، وهم — ويا للأسف — قليل .

لكل هذا جانب من الصواب ، ولكن أن يقف النقد والنقاد من مسرحية موقف عامة الجمهور فتلبسهم نزعات الدهماء في الحكم على الرواية وتأديتها ، وتكون مقاييسهم في الحكم من مقاييسه التي يجفوها الحس المرهف والذوق المصفَّى ، وتعوزها المعرفة بفن كتابة المسرحية وبحرفة الاخراج ، وينقصها الاستقصاء الفني السليم ، فهذا أمر له خطره ، وظاهرة عجيبة جديرة بالانتباه .

إن النقد — ذاتيًّا كان أو موضوعيًّا — يجب أن تكون أحكامه أسمى من أحكام الجمهور وأقوم منهجاً وأوفر نصيباً من الدقة والإحكام ، وأن يكون للتبصير وللتنبيه ، وأن يكون حركة إيجابية عنيفة نحو الإصلاح والتوجيه إلى ما هو جميل حقًّا وإلى ما يجب أن يكون ولا يبالي في سبيل هذا بالخروج على بدوات الذوق السائد ، وقد يكون معتلاً سقيماً ، ولا يأبه بالأوضاع القائمة ما دامت في حاجة إلى التبديل والتحوير .

يقولون « لا شيء ينجح مثل النجاح » وهي قولة لها ما لها وعليها ما عليها ، ولكن الذي لا شك فيه أن النقد إذا جرى في إثر هذه القولة ولم يراجع ويمحص انعدم غرضه وامّحى أثره بل إنهُ يغدو بوقاً عزافاً بالدعاية لكل براق خلاب .

• • •

ذلك وجه من وجوه النقد المسرحي الذي طالعني ، ويا للأسف ، عقب إخراجي مسرحية « البهلوان ... » . ولا أتحدث عن وجوهه الأخرى التي تنجم الفينة بعد الفينة ، نجوم قرن الماعز ، فتكون — إلاّ أقلها — للتشيع والمناصرة من غير حق ، أو هي للتخذيل والمناجزة من غير أصل ، وقد اتسمت في الحالتين بالجهل المزدوج ، جهل الناقد بمعارف ما ينقد وأصوله ، وجهله بأنه يجهل الأرض التي سخر قلمه العابث الضليل للخوض فيها .

أما بعد ، فهذه تأملات أردت تسجيلها مهيباً بحملة الأقلام النزيهة العاملة أن يعالجوا شؤون المسرح في أسلوب جدي رصين يشع فيه الصدق والإخلاص والمعرفة ، فمسرحنا في حاجة الى الهداية والتوجيه والوعد والوعيد والهدم والبناء .

وبوصفي من سدنة هيكل هذا المسرح أحمل على أكتافي وفر السنين وتجاربها ، وأنوء بأثقال من النقد ، مدحاً وذمًّا ، وثناءً وشتماً ، أقول لهذا الناقد الحق المرتجى ظهوره: « اشتمني واصدق أيها الشاتم » .

زكي طليمات

المدير الفني للفرقة المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

٤ - الاستدراك

• الامتاع والمؤانسة • الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

– ٢ –*

ص ١١١ س ٢٠ « فقد بان أنَّ النفس متى لم تكن ... أنّها لا تكون أيضاً ... » بفتح همزة « أن » الثانية ، والصّواب كسرها فتكون « إنها » لأنَّ الخبر جملة لا مفرد مؤوّل ولا يجوز جعْل خبر « أنَّ » المفتوحة مَصْدراً مؤوّلاً من « أن » المفتوحة نفسها وما بعدها كما ورد في الكتاب .

ص ١١٦ س ١٠ « حاولنا عند علمها أن تكون » وفي الحاشية أن الأصل «علمائها» وأنه تحريف . قلنا: وصورة الكلمة تدل على أن أصلها المحرف «علمنا بها» فما الداعي إلى الإغراب ؟

ص ١١٩ س ٩ « مداجاةً في العلم وخيانة للحكمة وجناية على المستنصح » بنصب المصادر الثلاثة . ولا نرى وجهاً له ، وإنما المداجاة خبر لمبتدأ متقدم هو « إدخال » ، فتكون الجملة « وإدخال العريض .. مداجاة » ، ويتبعه في الرفع خيانة وجناية .

ص ١٢٦ س ٢-٣ « ليس في بضائع أصحابنا الذين حولي من يُدرك هذه المعاني ... فكيف من يفزعَ في شرحها وتهذيبها إليه » وقال الناشران في الحاشية : « الظاهر أن (من) زائدة » . وليس هذا عندي بالظاهر لأنَّ حذف « مَن » يخلّ بالعبارة ويغير المعنى المُراد . فانَّ القائل نفى وجود المدرك للمعاني وبنى عليه نفي وجود الشارح وإنْ كان التعبير استفهاميًّا ، فكأنه قال : « ليس فيهم من يدركُها فضلاً عمن يشرحها ويهذبها ، وحذفُ «من» يجعل العبارة غلَطاً .

ص ١٣٤ س ١٤ « والقواعد تسيحُ » بالحاء المهملة . والصواب « تسيخ » بالخاء المعجمة أي تغور وتذهب في الأرض ، ومثله « تسوخ وتثوخ »

ص ١٤٨ س ١٣ « وليسَ للإنسان عنها مرتحل » . قلت المشهور في كلام العرب « مَزْحَل » كقول الشاعر « وإن لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَل » وهو اسم مكان من « زَحَل »

---

* راجع مقتطف دسمبر الفائت ، باب التعريف والتنقيب

أي تنحى وابتعد .

ص ١٤٩ س ٣ « فقبلَ أن لَقيتُ الملك أفصح له الذي كان معي مشرفاً عليّ » وفي الحاشية أنّ في الأصل ما صورته : « ما أفصح » بالنفي وأنّ « ما » زيادة من الناسخ . وهذا غير صحيح لأن المعنى يكون به معكوساً ويدلُ على انّ المشرف لم يفصح لعضد الدولة أنه كان متشوفاً متشوقاً إلى سماع الجواب ويقول : « هات الجواب عمّا نفذت فيه ... أنت حُمّلتَ الرسالة وأطالب غيرك بالجواب » ؟ !

ووردت « نُفّذت » المذكورة في النقدة السابقة على وزن « خَرَجْتَ » . وهذا غلط في الضبط ، والصواب تشديد الفاء وبناؤه للمجهول ، أو « أُنفذت » فانهم كانوا يقولون « نفذته وأنفذته في رسالة تنفيذاً وانفاذاً » أي أرسلته وبعثته ، أمّا « نفذ فلان القومَ أي تجاوزهم » فلا يصحّ ها هنا — كما هو واضح — لأنّ الرسول أرسله غيرُهُ ولم ينفذ هو بنفسه .

ص ١٦٧ س ١ « رمى عمر بن هبيرة ... إلى عُرام بن شتير بخاتم له فضة ـ وقد زوج ـ فعقد عليه عرام سيراً » . فليت شعري من كان قد زوّج وما سرّ التعريض الوارد في الخبر ؟ إنّ هذا تحريف غريب والأصل « فيروزج » و« فصهُ » ، محرّف إلى « قد زوج » وفضة ، والصواب « رمى ... بخاتم له فصُّهُ فيروزج فعقد ... » اتخذ الفيروزج معراضاً للزرقة المكروهة عند العرب .

ص ١٧٦ س ٨ « الذي أتي به ابن هبيرة الفزاري فأمر بصلبه » بنصب « ابن » . والصواب رفعه لأنه نائب فاعل .

ص ١٧٨ س ٦ « فلم يَحر إليه جواباً » بفتح ياء « يحر » . والصواب ضمُّها ، يقال : « ما أحار ولم يُحر جواباً »

ص ١٧٩ س ٧ « فيكتفي مؤونتي » . وهو غلط صوابه : « فيكفى مبنيًّا للمجهول ثلاثيًّا ، وقد ورد في الصفحة بعينها « س ١١ » : فيكفى مؤونتهم . والأول لا يعضده القياس ولا يؤيده السماع ، لأن الاكتفاء اعمال بالنفس و « يكفى » عمل لغير الانسان المكفيّ وهو المراد لدلالته على المعونة .

ص ١٧٨ س ١٦ قول حسّان بن ثابت :

أناس تهلك الأحساب فيهم يرون التيس يعدلهُ الحبيب

ولا أرى نسبة بين التيس والحبيب وهلاك الأحساب ، ولو جاز الاستغراب لقيل على الاقلّ « الجنيب » وهو الفرس المجنوب . وأرى أن الأصل : « يعدلهُ الحسيب » أي يسوّون بين التيس والرجل الحسيب ، وهو إيضاح لقوله : « تهلك الأحساب فيهم » .

ص ١٨١ س ٨ « ويتصامم عن العَـوراء » بفك الادغام في « يتصامّ » وهو غلط والصواب « يتصامّ » بالادغام لوجوبه ولم يشذّ من القاعدة إلاّ قولهم « تجانن » في الشعر دون النثر.

ص ١٨٤ س ١٢ « ومر جرير بالأحوص وهو يفسق بامرأة وينشد » . وهذا الفسق محال لا يجري بصورته في أسوإ الأمم أخلاقاً فكيف العرب في عصور الاسلام (وفي «مرّ» إشارة إلى أن الحادث جرى في الطريق) ؟ والصواب : « وهو يشبب بامرأة » ومصدره التشبيب ، ويوضحه قوله « وينشد » .

ص ١٨٦ س ١ «إنّ هذا الباب مختلف فيه ولا سبيل إلى رفعه » . والصحيح « إلى دفعه » أي دفع الاختلاف ، وقد تقدم في الـكتاب (ج ١ ص ٧٧) : « مما لا سبيل إلى دفعه » .

ص ١٩٠ س ١٤ « هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدع الله به » . والصواب « ولا تدعوَ » بالنصب لا بالجزم ، معطوفاً على المنصوب « تعلمه » . ولا يجوز عطف فعل طلبي بالأمر والنهي بحرف العطف (الواو) على فعل خبري مثل « تعلمه » فلا يقال « هذا تأخذه ولا تبعه » أو « تأخذه وبعه » .

ص ١٩٧ س ٢ « الجنة إذاً أولى من الحمام إذ قيل بئس البيت الحمام » . والظاهر أن الأصل «أولى (بالذم) من الحمام » لأن وجه الأولوية غير مذكور في العبارة .

ص ٢٠٠ س ١٤ « وحدثني أن امرأة تظلمت » . ولا مرجع لفاعل «حدثني» في الإخبار ، ولعل الأصل «حُدثتُ» مبنيًّا للمجهول .

ص ٢٠٢ س ٦ «وتعلم الحاضر بالتعارف والمشاهدة ومجال الحس » أي النفس . وفي الحاشية أن التعارف وردت بهذه الصورة ولا معنى لها . قلت : وكيف لا يكون له معنى وهو مبالغة من المعرفة والتعرف كالتباعد والتقارب والتعالم والتسامي والتعالي في المبالغة من البعد والقرب والسمو والعلو والعلم ، ثم إن المشاهدة والاحساس يجعلان تعارفاً بين الشيء الحاضر والنفس ، فهو على الوجهين صحيح .

ص ٢٠٦ س ٥ « وليس لهم (عليها) معير للخوف منهم » . ولا داعي إلى إقحام «عليها» في الـكلام ، فان لم يكن بد من الايضاح فالواجب إقحام « بها » لأنهُ يقال « عَيَّره كذا تعييراً وعيّره به » على لغة يدعى اللغويون أنها ضعيفة وإن كان هذا الادعاء مضاداً لطبيعة الـكلام لأنّ الحذف والايصال تخفيف للعبارة ، والتعدي الطبيعي في الفعل لا يكون إلاّ إلى مفعول واحد .

ص ٢٠٨ س ٤ « وطرف حازم » وفي الحاشية أن لفظ « حازم » وردت بهـذه الهيئة ولعلها تحريف إذ لم يظهر للناشر معنى وصف الطرف بالحزم . قلت : الصواب « طرف عادم »

بالراء من العرامة وهي الشدة ومِـنه قول ابن أبي ربيعة : « ولي نظر لولا التحرّج عارم »

ص ٢٠٩ س ٢ « يتلقى ما أعيا من ذلك باللي ّ » وفي الحاشية أن الأصل « بالـكيّ » وأنه تحريف لا معنى له . قلت : لا بل هو الصواب ، وهو مأخوذ من قولهم في المثل « آخر الدواء الـكي »

ص ٢١٣ س ١٣ « كما يطربُ ســامع الغناء على الشبابير » وفي الحاشية أن الأصل هو « الستائر » لا الشبابير وأنه تحريف استوجب هذا التصحيح . وهذا القول غير سديد لأنّ كلمة « الستائر » اصطلاح على الغناء في تلك العصور التي قيلت فيها الـكلمة وقبلها ، ووُصف ناس بأنهم من أصحـاب الستائر أي ذوي جوار يغنين خلف الستائر .

ص ٢١٤ س ١٣ « بين حَيطة وورطة » بفتح الحاء من حيطة . والصّـواب « كسرها » لأنّـها في الأصل مصدر هيئة ثم صارت اسم مصدر كما هو مألوف في لغة العرب . ولو كانت الحاء مفتوحة لقيل « حوطة » أو « حاطة » كالعودة والعادة والقولة والقالة ، فالعين واو .

ص ٢١٨ س ١٠ « فإذا نَقبَ الخفُّ دَمى الأظلّ » . فليت شعري ما الأظل ؟ إنه اسم تفضيل من « ظلَّ » أي بقي ومكث ولا محلّ له هنا . والصواب « الإطلُ » على وزن شبر وهو لحم باطن الخف فإذا نقب الخف دَمي ذلك اللحم .

ص ٢٢٠ س ٦ « لما يدخل هذا الوارد ويدنون طرف البساط تندر رأسه » . و « لما » لا تدخل على المضارع من الأفعال وهي ظرف للزمن الماضي فكان الفعل الماضي بزمنه وصورته أحق بها من غيره ، ومن المستبعد أن يستعملها أبو حيان بخلاف ما ورد في لغة العرب ، وقد وردت على هذه الصورة القبيحة في شعر شهاب الدين الخيمى المتوفى سنة ٦٨٥هـ قال :

لـكن ينازع شوقي تارةً أدبي فأطلب الوصل لما يضعف الأدب (١)

فلعلّ الأصل : « حالما يدخل » أو « حينما » أو « عند ما » على لغة ضعيفة أوجه من وضع « لما » كذلك .

ص ٢٢١ س ١٤ « ومن الجالس فوق مشْرعة مكان الروايا » . والذي علمناه من خطط بغداد أنها « مشرعة الروايا » لا « مشرعة مكان الروايا » (٢) ، والظاهر لنا أنّ في الأصل « كان » مقحمة فتزحلقت وصاوت « مكان » أعني أنّ الأصل « من الجالس — كان — فوق مشرعة الروايا » .

ص ٢٢٦ س ١ « ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملت فيه إلى التحوير » ، وفي الحاشية أنّ

---

(١) ابن الفرات في تاريخه (ج ٨ ص ٤٢)

(٢) أصول التاريخ والادب ، من مجموعاتنا الخطية (ج ١٩ ص ١٦١) وكامل المبرد (ج ٩ ص ٢٢٣) و (المنتظم ج ٨ ص ٢٣٢)

التحوير في النسخة التي ورد فيها وحدها هـذا الكلام هو على صورة « التجويز » وأنه تحريف . قلت : وما التحوير إلاّ التبييض ولا محلّ لها ، فالصواب « التجوّز » أي الترخص في التعبير والتسامح فيه ومنه قول المؤلف في الجزء نفسه ص ١١٠ س ١٥ : « إلا أن تجعل إفادتها للقابل منها استفادةً لها وفي هذا تجوز ظاهر » ، ولو جاز أن يكون مصحفاً عن غير التجوز لكان « التحويف » مصدر « حوّف » أي مال إلى الحافة .

• • •

ومن الغلط في أعلام الناس :

ص٧ س ٨ «رأيت أبا خليفة المفضَّل بن الحباب» . والذي حفظناه أنه «الفضل» وقد راجعنا ماوصلت اليه يدنا من الكتب في الاسكندرية(١) فتأكد لنا أنه أبو خليفة الفضل بن الحباب ابن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي القاضي السّجاع وهو ابن أخت محمد بن سلام الجمحي مؤلف طبقات الشعراء ، كان من رواة الأخبار والآثار والأشعار والآداب والأنساب وتوفي بالبصرة سنة « ٣٠٥ » هـ(٢) .

ص ١٣ س ٨ « قال أبو الحسن أخبرني الثوري عن أبي عبيدة » وفي الحاشية أنّ هذا «الثوريّ» ورد في نسخة ب بصورة «التوزي» وأن كليهما معروف . قلت : كونهما معروفين لا يكفي في تحقيق الاسم ، فانّ سفيان الثوري لم يرو عن أبي عبيدة وإنما روى عنه التوزي .

ص ٧٥ س ٩ « على المائدة أبو علي بن مقلة وأبو عبد الله اليزيدي .. وكان اليزيدي.. » ولم يشتهر يزيديّ في ذلك العصر فضلاً عن أن يؤاكل ابن مقلة الوزير فالصواب « أبو عبدالله البريديّ » وهو الأمير المشهور في تاريخ ذلك العصر وورد في ص ٢٢٢ « ابن اليزيدي » .

ص ٧٦ س ١ « وحدثني ابن صبعون الصوفي » . والمشهور «ابن سمعون الصوفي» وهو الذي ذكره الحريري في المقامات وهو محمد بن أحمد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ٨٨ و ص ١٩٨) وابن خلكان في الوفيات وغيرهم .

ص ١٠٠ س ١٧ « لأبي الحسين السبتي » وفي الحاشية قال الشارحان « في ب الليثي » . وهذا لا يكفي فانّه لا يجوز أن يكون بالنسبتين معاً صحيحاً ، فالصّواب « أبو الحسن البستي » لا أبو الحسين الليثي ، واسمه أحمد بن علي ، وترجمته في معجم الأدباء (ج ١ ص ٢٣٣) من طبعة مرغليُث وغيره من كتب التراجم والأدب .

---

(١) بعث الينا الاستاذ مصطفى جواد الدكتور في الآداب من السربون والاستاذ بدار المعلمين العالية في بغداد بهذا الاستدراك وهو نزيل الاسكندرية ، في الصيف الماضي .

(٢) الصفدي في « نكت الهميان في نكت العميان » ص ٢٣٦

ص ١٥٣ س ٤٠٣ « ومحمد بن صالح بن شيبان » . والذي علمناه أنه « ابن أم شيبان » وهو الذي سأل المتنبي عن سبب لقبه كما في الجزء الثامن من « نشوار المحاضرة » وكان من القضاة الهاشميين ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (ج ٥ ص ٣٢٦) وذكره مسكويه في التجارب (ج ٥ ص ٤ ص ٢٩) وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ١٠٢) واشتهر ابنه علي بابن أم شيبان أيضاً كما في تاريخ الخطيب (ج ٢ ص ٩٩) .

ص ١٥٣ أيضاً س ٧ « وابن رُباط شيخ الكرخ » . رُباط جاء على وزن غُراب وفي ص ١٩٧ س ٣ « ابن ربّاط » على وزن شداد ، وفي هذا تناقض يجب دفعُهُ .

ص ١٩٦ س ٨ « قال ابن عثمان الآدمي » . الآدمي منسوب إلى آدم من الآدمين ، والمشهور « الأدمي » بلا مدّة وهي الجلود المدبوغة والنسبة نسبة الحرفة .

ص ٢١٥ س ٦ « هذا التركي ساسنكر ، تفيأ بظله » وفي الحاشية أنّ الشارحين لم يجدا هذا الاسم في معجمات الأعلام التركية التي راجعاها والذي وجداه سنجر . قلت : المراجعة لا تكفي في وجدان الاسم ومعرفته . لأن المسألة تاريخية لا لغوية حتى تكفي فيها صورة اللفظ ، فصاحب الاسم المحرّف « ساسنكر ، هو « سبكتكين » الحاجب غلام معز لدولة ، وذكره مستفيض في كتب التاريخ كالكامل وتجارب الامم وكتب الأدب مثل الفرج بعد الشدة للتنوخي وغيره .

ص ٢٢٢ س ٤ « ولذوي مليحا في هذا الباب نفخ » وفي الحاشية أنّ هذا ورد في نسخة ب ولم يتبين الشارحان من هم ذوو مليحا . قلت : هو مكيخا الجاثليق كان ببغداد وأخباره في « كتاب بطاركة كرسي المشرق » لماري بن سليمان ، وذووه : أصحابه من النصارى .

ص ٢٢٨ س ٩ « سرحني رسولاً ... أو إلى أبي السؤل الكردي » وفي الحاشية أن أبا السؤل ورد بهذه الصورة ولم يهتديا إلى وجه الصواب فيه . قلت : إنما هو أبو الشوك الكردي المشهور في حوادث القرن الرابع للهجرة كما في الكامل وتجارب الأمم وغيرها .

• • •

هذا ما استطعت التنبيه عليه بعد قراءة سريعة والابانة عنه بعد التأمل والروية ، وهو يسير — كما قلت — بالاضافة إلى هذا الجزء الفاخر الذي تدل العناية الفائقة باخراجه على علم وفضل وتبحر واستفراغ للطاقة وحرص في الحفاظ على تراث الأمة الأدبي . فللأستاذين الناشرين أتم الشكر وأطيب الثناء .

مصطفى جواد

٥ — المسائل

الأديب وحرفته

كما أن الأدب لا وزنَ له إذا غلّته القيود سواء أتته من جهة السياسة أو من جهة الاجتماع أو من جهات أخرى ، كذلك الأديب لا يصدق إنشاؤه ولا يعظم شانه إلاّ إذا انطلقت يده فاطمأن قلمه إلى صناعة الكتابة . والأديب أو المنشئ لا بدّ له من حرفة يحترفها تكون مرتزقه ، وذلك لأن الإنشاء لا يدرّ عليه ، في غالب الأمر ، ما يقيم عيشه ويسدّ حاجه . تلك حال الأديب من الزمن الأول حتى اليوم — تلك حاله في أوربة لهذا العهد ، وإن قيل لنا إنّ الأدب هناك سوقُه نافقة ، وإن زعم زاعم أنّ متعاطيه هناك لا يشكو الضنْك بل ربما أثرى . ولا ريب أن تلك حاله أيضاً في بلداننا الناطقات بالعربية . وطبيعي أني أعني الأديب المخلص لفنه ، الحابسَ همه على محض الأدب ، لا الواغل على أهل تلك الصناعة ، ولا المنعطفَ اليها عن هوًى عابر ، ولا المتخذَها وسيلةً أو ألهية .

وللأديب أن ينجو من هذه المشكلة فيعدلَ عن اختيار حرفة يتكسّب بها ، قد يكثر معها التصرف والتقلب ، وذلك بالانزواء والقناعة بكفاف الرزق والاجتزاء بقسمة القدر ، بما يتقطر له الحين بعد الحين من هنا ومن هنا . فتكون سيرته من سيرة شيخنا أبي العلاء الحبيس . غير أن الزهد والتقشف لا يقدِر عليهما إلا الأقلون . وليس لهذا النحو من العيش أن ينتصب قاعدةً يُجرىَ عليها . وللأديب بعد هذا أن يحظى بعطف ملك أو كبير يقرّبه ويؤثره ويقدرهُ ، فيجري عليه راتباً أو يصله مرة بعد مرة ، لوجه الرعاية . على أن هذا اللون من الحظوة ، وإن كان شائعاً في العصور الماضية ولا سيما عند العرب ، لنادرٌ حدوثه اليوم . وإن وقع ، فلغاية معلومة . ولكنه كثيرُ الحدوث للعالِم ، ومن الأدلة على هذا تلك الأموالُ المرصودة للمعامل والمخابر والمعاهد ثم للرّحلات والتنقيبات والتجارب ... عهدُنا اليوم أوفر انصرافاً إلى حقائق العلم منه إلى رقائق الأدب . وفي هذا مَجلبة للحسرة ، ففي الأدب غِذاء وسموّ لا تجدهما والله في العلم الصرف .

* * *

---

* حديث أذاعه الكاتب من « راديو الشرق » ببيروت في ١١/ ٦/ ١٩٤٤ .

هذا ، والحق أن الأديب يشق عليه أن يختار حرفةً تباعد فنّـه وتغاير خطته ، إذ أنه منجذب إلى صناعته ، محوّلٌ إليها سكناته وحركاته ، مشغولٌ بها في يقظته وغفوته . لذلك نرى الأديب في عصرنا هذا قليلا ما يزاول صناعةً تحيد عن طريق فنه أو تفلت من سلكه . فهو موزّع بين التدريس والصحافة والتأليف المتصل . وإن خرج عنها فهو في أكثر الحال موظّف سواء عليه أسايرت وظيفته هواه الأدبي أم جانبته .

وفي رأيي أن في تلك الحرف الثلاث ثم في التوظف ما قد يضر بصناعة الأدب وينقص من ثقافته :

أما التدريس ، عندنا على وجه التخصيص ، فيحصر الذهن في الكلام المعاد سنة بعد سنة . وأخوف من هذا أنه يغرق من يمارسه في الكتب والكراريس ، ويلزمه لوناً أو لونين من الفنون ، ويدفعه إلى الاستبحار في اللون أو اللونين ، ويلفته قليلاً أو كثيراً عن سواهما ، فيمط الادراك من جهة ويقبضه من جهة . ثم إن الكراريس والكتب تيسر التلقف والاقتطاف من غير إعمال الروية . وعلى هذا نبه قديماً إمامنا الجاحظ ، وهو يلهو في إحدى رسائله — ولعلها « التربيع والتدوير » — بالصَّحَفي ، وكأنه يريد ما يقال له في الفرنسية livresque والانجليزية bookish ، وهو المتلقي معارفه من بطون المجلدات . هذا ، والتحقيق أن تصفح وجوه الحياة كما يرى الفيلسوف الفرنسي ديكارت Descartes وتدبر مطاوي النفس كما يرى المفكر الألماني نيتشه Nietzsche إنما هما مصدرا الفهم الأعلى والحس الأوفر . ثم إن تكرار الحديث سنة بعد سنة ، أو تناول الموضوع الواحد موسماً بعد موسم ، يولد في الذهن مثل الركود والفتور ، على حين الأدب كما أظنك تعلم : وثبان وفوران .

وليس خطر التدريس على صناعة الأدب بشيء إلى جنب خطر الصحافة . ولا يزال الجمهور يخلط الأدب بالصحافة ، بل إنك ترى صحافيًّا ينزل نفسه منزلة الأديب لأنه يرفع الفاعل ويخفض المجرور — وقد لا يرفع ولا يخفض ! — ولست بعارض هنا لهذا الضرب من الصحافيين المقتحمين مسالك الأدب المنتحلين اسمه على غير استبصار ، ولكني أريد الأديب الذي يشتغل بالصحافة ويرضى بها حرفة له . والكلام على سوء أثر الصحافة في الأدب المحض يطول ، فحسبي الاشارة إلى أمرين :

الأول أن للصحافة أساليب ، من ينتهجْها طويلاً يجرِ عليها في طريق الأدب من حيث لا يحتسب . ومن هذه الأساليب العناية بالحادث فوق العناية بما خلف الحادث من الأسباب

الدقيقة وبما بعده من المسببات الجليلة : فلا غوص على البعيد ولا تمهل عند الخطير . بل الهم منصرف إلى الحاضر الظاهر ، وليس الحاضر بالنقطة الثابتة حتى يعظم شأنه ولا بالجوهر القائم حتى تعتمد حاله . وأما الأمر الثاني فالسرعة التي يضطر اليها الصحافي إذا كتب : فالخبر أو المقال يجب أن يطبع اليوم أو في غدٍ ، والقارىء منتظر ملحّ . فالصحافي لا ينفسح له مجال التبصر ، ولا قارئ الصحف يقوى على ما لطف مرماه وبعد مغزاه .

هذا ، ومن أثر الأمر الأول — وهو الوقوف عند الحاضر الظاهر — أن الأديب يعتاد الكتابة الهينة القريبة ، فلا تشغله علل الحوادث ولا تزعجه مصاير الأمور . وأما الانسانية فتنزل عنده منزلة القافلة التي أناخت وسط الصحراء واطمأنت فجمدت ، لا القافلة التي تقطع المراحل وتفوّز ، فتشقى ثم تنعم ، ويأخذها السراب ثم تنكشف لها البئر ، وتدنو من الهلاك ثم ينجيها الأمل الرفاف .

ومن أثر الأمر الثاني — وهو التمرع في الكتابة — أن الأديب متى ينشئ ينصرف عن التأمل والتفهم في باب التفكير ويهمل التهذيب والتشذيب في باب التعبير — وما أعرف آفةً أضرَّ بالأدب من التمرّع ... الأدب الحقّ ولادة مُعْسِرة — أريد جهة الفكر لا جهة الأداء .

ثم يلحق بهذين الأثرين أثر ثالث لا بدَّ لي من ذكره خطفاً . وهو انحراف الأديب الصحافي إلى الجدَل والمحك ، وذلك لأن حرفتَه تسوقه إلى الدفاع والهجوم عن هوًى أو تحازب ، فليست الحقيقةُ التي تجذبه وتقلقه ، ولكن الغلَبة والانتصار . وليس في هذا الأسلوب ما يُغني أو يُرقي .

...

وأما حرفة التأليف المتصل ، ففي ظن أكثر الأدباء أنها أليق بهم ولهم أنفع . والحقّ أنها بضد ذلك أو بخلافه . ودعني أمثّلْ لك بدلاً من أن أحكمَ على سبيل التجريد في الكلام . وليكن المثل الذي أختاره ما يَجري حولك الآن فيَ ميدان النشر . فهذه دورٌ للطباعة همُّها إخراجُ الرسائل والكتب إلى القراء إخراجاً متواصلاً متعاقباً . فهي لذلك تقصد الأدباء ، وهي تؤثر الملحوظين منهم المشهودين رغبةً في الرواج وطمعاً في الكسب . وينشأ عن ذلك أن هؤلاء الأدباء — إلى جنب سائر أعمالهم ، مثل إنشاء المقالات وإلقاء المحاضرات — ملزَمون بدفع كتاب أو أكثرَ من كتابٍ في السنة الواحدة . فمن أين

الوقتُ الذي يستوعَب فيه الموضوع ، وتنضج الفكرة ، ويستوي التأليف ، ويستقيم الأداء ؟ وقد وقع بعض هذه الكتب بين يديّ في السنة التي نحن فيها ، وهي التي نشطتْ فيها المطابع فتواردت ثمراتُها . فوجدتُ تلك الكتب — في جملتها — فجّةً أو ذاوية ، وعلى أكثرها طابَع الارتجال . ولا يكاد يكون فيها كتاب يغذو الضمير أو يثير الفكر أو يشق أفقاً أو يرفع حجاباً . ذلك أدب رخيص أو كالرخيص . وشرّ ما في الطريقة أن الناشر يقترح الموضوع على الكاتب ، أو يقيده في سلسلة معيَّنة ، كأنما الأديب رَهنُ التاجر أو طوعُ السوق .

بقيت حرفة التوظف ، وهي خارجة عن الصناعة كما قدَّمتُ لك ، وضررُها أنها كثيراً ما تولد في النفس فتور الذهن وقعود الهمة ، وتطرد من الطبع غضبةَ الحرّ وثورةَ الشامخ . فإن استطاع الموظف أن يجاهد ما يتولد في نفسه ، ويستردّ ما يُطرَد من طبعه ، فحرفته تمكنه من معالجة الأدب في تغلغل وروية وتمهل واستقلال .

وليست تلك الحرَفُ كلّ ما يتقدّم بين يدي الأديب ، فهنالك حرَفٌ أجنبية عن دائرة القلم والمداد . هنالك الحرف اليدوية مثلاً . وقد أوصى بالاقبال عليها أمثالَ الفيلسوف الفرنسي رينان Renan وتولستوي الروسي . وبها كانت فئة من أدباء العرب يتكسبون ، ولا سيما الشعراء : كان فيهم البزاز والخياط والرفاء والسقاء وغير ذلك ، وهم في سلَّم القيم الانسانية أرفع مرتبة وأجل شأناً من الأدباء الطفيليين ، أولئك الذين رَضُوا بالمديح تارةً والهجاء أخرى ، مرتَزَقاً . فأقبِح بهم ، وإن كان فيهم أضراب الأخطل وبشار . ومما يحزن النفس أنّ لهؤلاء الجناة على جوهر الأدب أذناباً في العهد الذي كُتب لنا أن نعيشَ فيه ، وقد توافر فيه التملّقُ والتجريس .

• • •

وبعدُ ، فلم أعرض هنا إلا للحرف التي يختارها أدباؤنا . فأشرت إلى ما فيها من النواحي التي تضر بالإنشاء ، ولعلي لم أتحكم ولم أجازف . وإنما غرضي أن أنبه وأن أبين ، وأما همي فصون البهاء الذي في الأدب وحوط الجلال الذي يلفه .

بشر فارس

◆

باب الأخبار العلمية

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

قد يكون غير ضروري كشف سبب داء السرطان ، ما دام علاجه ليس ميسوراً . ولكن قد تبين من المباحث التي تمت في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٢ أن بعض أنواع المواد الكيميائية تحول دون قيام خلايا سرطان الثدي بوظائفها . بيد أنها لا تستطيع مناوأة أية خلية من الخلايا السليمة . ومن المعلوم أن العلماء لم ينجحوا في اختراع أي علاج كيميائي لذلك الداء العُضال ، فإذا أسفر هذا البحث (الذي ما زال في طور أنابيب الاختبار في المعامل الكيميائية) عن نتيجة مرضية ، كان بلا شك دليلاً على القضاء على ذلك الداء العياء .

وما فتئت الفيتامينات ذات تأثير خطير في علاج أوصاب الناس . وأحدث ما ظفر به العلماء منها في هذا الصدد هو فيتامين ب ١ B.1 وهو هيدروكلوريد الثيامين الذي يزيل الألم المبرح من أسناخ الأسنان المؤلمة في الفك عند ما تخلع منه الأسنان ، إذ تحقن هاتيك الأسناخ بذلك الفيتامين فيذهب عنها الألم في ثلثي الاصابات في نحو نصف ساعة .

وفي أكداس الدريس قد يوجد العلاج المنقذ للبشر من تجمد الدم في عروقهم وغير ذلك من المضاعفات لتصلب الشرايين ، لأن تعفن النفل sweet clover يولد مادة كيميائية تسمى ديكومارين Dicoumarin تنقص من قوة تجمد الدم . وهذه خاصية مفيدة في علاج الحالات التي مدارها تجمد الدم . وقد تمَّ تركيب هذه المادة الكيميائية وهي رخيصة . ويستطاع إعطاء المريض إياها من طريق الفم وحقناً بالمحقنة تحت الجلد . ويتوقع العلماء نجاح هذا الدواء لأن الخبراء قد شاهدوا أن المواشي التي تعلف بالنفل الذي دبَّ فيه العفن كثيراً ما تموت من رضوض خفيفة يتولد منها نزيف قتال مصدره عجز الدم عن التجمد . وإليك تاريخ الديكومارين :

كان الديكومارين يستخرج في بدء الأمر من النفل المتعفن ثم شرعت جامعة ويسكونسن الاميركية في تركيبه بالوسائل الكيميائية . ويرى العلماء أنهُ سيصبح عاملاً جديداً خطير الشأن في علاج تخثر الدم في العروق إذ يقيها منه . وهذه الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تنتاب المريض عقب الجراحات . وقد أعلن هذا الاختراع ثلاثة أفواج من ثقات

الباحثين المحققين وذلك في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الأميركية كما جاء في جريدة التيمز النيويوركية بقلم مندوبها ل. لورنس. ولا غرو فتكوّن الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تساور الجراحة سواء أبقيت في مكان تولدها فتعرف باسم (رُوبة الدم) أم انتقلت من منشئها إلى عرق أبعد وأصغر مما نشأت فيه حيث تعوق الدورة الدموية فتحدث حينئذٍ حالة تسمى السدادة الشريانية.

ما الهيبارين ؟

أما الهيبارين Heparin فهو دواء موجود الآن في الصيدليات المصرية ومخازن الأدوية وقد استعمله صديقنا الدكتور رمسيس جرجس الخبير الفني في لجنتي الطب والكيمياء في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة، وذلك في علاج أحد أقطاب الوفد المصري، فشفي. ويستخرج الهيبارين من كبد الحصان ويقاوم تجمد الدم أيضاً، ولكنه غالي الثمن ولا بدّ من إدخاله في العرق حقناً. وهذا العمل يتطلب دقة الملاحظة.

مجاري الكهيربات تفوق موجات الضوء

وكان التقدم العلمي الذي تم في الميادين الأخرى فائقاً أيضاً ونافعاً جداً في الظروف الحالية الطارئة. ومثال ذلك أن طول موجات الضوء المرئي، كانت تعدُّ منذ سنوات، مقياساً لحجم المرئيات التي تستطيع العيون البشرية رؤيتها. ثم تبين أن مجاري الكهيربات، وهي جزيئات المادة من جهة، وجوهر الكهربية من جهة أخرى، تكاد تقوم مقام الضوء، الذي تكون موجاته أقصر منها جداً، فيتسنى بها توسيع نطاق المكتشفات الدقيقة الجوية وتصوير الأشياء التي لا يمكن إبصارها بالمجاهر العصرية ذات العدسات المصطلح عليها، وإن تكن من أجود الأنواع. فظهر أن الجراثيم ذات أشكال تختلف عما كان معروفاً وذلك حينما تمَّ تكبير صور أقطارها بالمجهر الكهيربي من ٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ مرة. ثم ثبت أيضاً أن المواد الكيميائية الشائعة الاستعمال تختلف كل الاختلاف عما كان يزعم الناس. وأحدث ما أضيف من التحسينات إلى ذلك المجهار الكهيربي، جهاز للاضاءة سوف يتيح نقل الصورة التي تصور بالمجهار المشار إليه، وذلك بالراديو المصور. غير أن الزمن الحالي غير صالح للانتفاع بهذا التحسين. ويؤلف المجهار الكهيربي المكشاف المشار إليه من مجهار كهيربي وراديو مصور وراديو مقلّد.

المجهار الكهيربي

وبهذا الجهاز الجديد يتمكن العلماء من دراسة تركيب الذرات في الأجسام غير

الشفافة ، مثل الفلزات ، درساً محكماً لم يحلم به إنسان . ويتيسر استعمال المجهار الكهيربي أيضاً في تقصي الأشياء الدقيقة وتحديد بنائها الذري . وبهذا التعديل تغدو الصورة التي تلتقط به ليست ممثلة لهيئة الجسم التي تبدو للناظر (إذا استطاع رؤية هاتيك الأشياء الدقيقة) بل تكون في الواقع رسماً يرسمهُ تشعع النور تشععاً يتمكن به علماء الطبيعة من إدراك كيفية ترتيب الذرات في الجزيئات وفي خلال بضع دقائق يستطاع التقاط صورة من هذا القبيل ثم استخراج نموذج لها بتشعع النور عنها فتأتي بمنافع جليلة في كثير من ميادين العلم .

وثمة تحسين في المجهار الكهيربي هو إنتاج صور يمكن بها رؤية الأشياء مجسَّمة . وقوام هذه الخدعة العلمية هو عمل صورتين من زاويتين تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافاً طفيفاً . وتتاح مشاهدة هاتين الصورتين المزوجتين بوساطة المجساد .

جهاز للاشعة السينية

يولد مئة مليون ڤولط

وتستعمل الكهيربات الفائقة السرعة والطاقة بأسلوب مختلف جداً ، وذلك في أقوى ما اخترع في العالم من أجهزة أشعة رنتجن ، حيث تقوم آلة خاصة أطلق عليها اسم (معجلة تحريك الكهيرب) بقذف الكهيربات بسرعة فائقة تمكن ذلك الجهاز الضخم حينما يدور من توليد أشعة سينية تبلغ ٢٠ مليون فولط . هذا والعمل دائر الآن في وضع رسوم جهاز جديد لتوليد أشعة سينية تبلغ مائة مليون فولط .

وقد استوجب تركيب الجهاز السابق الذكر ، تشييد مبنى من الأبرق المسلح ، بلغت ثخانة حيطانه ثلاث أقدام ، وذلك لينصب فيه هذا الجهاز الضخم القوي ، صوناً للناس من ضرره . وهو مستعمل لفحص ألواح المعدات الحربية . والأشعة السينية الفائقة الطاقة التي سوف يولدها الجهاز المرتقب والتي تبلغ طاقتها مائة مليون فولط ستكون ذات موجة طولها يشبههُ أضعف موجات الأشعة الكونية . وهذا مما يجعل العلماء يأملون كشف أشياء جديدة خاصة ببناء الكون يمكن تحقيقها حينما تتاح لهم فرصة تذليل تلك الأشعة القوية جداً .

الأورانيوم رقم ٢٣٥

وما زال في طي الكتمان ، الذي يلازم دائماً المباحث الحربية ، خبر أي تقدم يتقدمه العلماء في استخلاص الطاقة من ذرة الأورانيوم بتهشيمها . ولكن زفت إلى العلماء بشرى عظيمة قد تكون سبب تحقيق آمالهم ، وهي تحطيم ذرة تشبه ذرة الأورانيوم رقم ٢٣٥ (التي هي معقد آمالهم في طاقة الذرة في هذه الأرض) .

ومصدر هذا الحادث هالة الشمس ، وهي

مجموعة من ألسنة الضوء المنير التي تحف بالشمس ولا ترى إلاّ عند كسوفها الكلي وكان اكتشاف الأورانيوم ٢٣٥ الذي ينفجر بقوة هائلة ، مشفوعاً بالعمل الباهر الخاص باكتشاف طريقة فصل نوعي ذرات الأورانيوم سبباً لاعتقاد بعض العلماء كونه ممهداً لإطلاق طاقة الذرة .

ويؤكد علماء الطبيعة أن رطلاً واحداً من الأورانيوم الذي يعادل ثقل الهيدروجين ٢٣٥ مرة تنبعث منه طاقة تساوي ثلاثة ملايين رطل من البنزين أو خمسة ملايين رطل من الفحم الحجري.

ويقول الأستاذ دننج Dunning مكتشف الخواص المفرقعة لأخف ذرتي الأورانيوم إنه لا يزال أمامه خطوة واحدة حتى يتمكن الانسان من الانتفاع بها وهي تحسين وسائل استخراج ذلك الأورانيوم من تبره إذ لا يتاح الآن استخراجه إلاّ بمقادير ضئيلة جداً على حين أن تبره يوجد منه مقادير كبيرة .

ويرى بعض العلماء أيضاً أن هذا الاكتشاف قد يفضي إلى إحداث انقلاب في العالم إذ أنه يبشر بجعل جميع المصادر الأخرى المولدة للطاقة ، لا تزيد على لعبات للأطفال وذلك عند موازنتها به. ولاغرو فهم يقولون إن مقداراً من الأورانيوم رقم ٢٣٥ يتفاوت بين خمسة أرطال وعشرة أرطال ، يستطيع تسيير احدى عابرات المحيط زمناً غير محدود . وبحسبان هذه المادة قابلة للانفجار يولد الرطل منها ضغطاً يعدل ما يولده ١٥٠٠٠ طن من الترينيتروتوليول مليون مرة . وأن قطعة منها في حجم كف المرء تمكن غواصة من قطع المحيط الهادي . وبمثل هذا المقدار تستطيع إحدى الطائرات الطيران حول العالم . وقد تبين أن الأورانيوم ٢٣٥ يمكن جعله يصدر طاقته بسهولة مدهشة إذ يوضع في صهريج ثم يسلط عليه مجرى مستمر من الماء البارد . وكلما عجلت إراقة الماء عليه ، خرج الماء ساخناً جداً من الجانب الآخر فيتولد البخار بأي مقدار تمس الحاجة اليه .

استخراج المغنيزيوم

من البحر

واستخراج المغنيزيوم من البحر ، وهو معدن أخف وزناً من الالومينوم ونافع جداً في صناعة الطائرات ، هو من أعظم الأعمال الكيميائية الحديثة التي تساعد الدول المتحالفة في مجهوداتها الحربية ، وكان هذا الفلز يستخرج من أملاح آبار المياه الملحة في متشيجان ولكن الكيميائيين حولوا جهودهم صوب اليمّ فاستخرجوا منه مقادير أكبر مما كانوا يستنبطون من مياه هاتيك الآبار إذ تبين لهم أن في كل ميل مكعب من مياه البحر زهاء ٥٧٠٠٠٠٠ طن من المغنيزيوم فأدركوا أن المحيط معين للمغنيزيوم لا ينضب .

عوض جندي

رداء غير منظور

يقي من البلل

تمكن العلماء أخيراً من اختراع رداء غير منظور يقي من البلل ، وهذا الرداء يمكن تكوينه على الأقمشة أو الورق أو غيرهما من المواد ، عن طريق تعريض تلك المواد لأبخرة كيميائية تتصاعد من مركبٍ جديد ، فتتحول إلى سترة تطرد الماء . ومن أهم منافع هذا الكشف الجديد استخدامه في معالجة العوازل الفخّارية في أجهزة الراديو ، لأن تأثيره يفوق نحو تسعة أضعاف تأثير العوازل الشمعيّة التي تستعمل في الوقت الحالي لطرد الماء ، كما أن مزاياه مستديمة باقية .

*

أما السائل الذي يبلل بَخرُهُ تلك المواد ، فإنه سائل رائق يتكوّن من موادّ كيميائية مختلفة تتبخر في درجة حرارة أقلّ من مئة درجة مئوية . وتُعَرَّض المواد التي يراد طلاؤها بهذه المادة للبخار في حجرة مقفلة خلال دقائق . ثم تنقل المواد من الحجرة وتعالَجُ ، إذا لزم الأمر ، ببخار النوشادر ليتعادل مع الحوامض الأكالة التي قد تتكوّن عليها أثناء عملية الطلاء . والنتيجة أن تتكوّن طبقة رقيقة عازلة للماء على سطح المادة (سواء أقماشاً كانت أم ورقاً) ، وهي متناهية في الرقّة حتى لا تستطيع العين المجرّدة أو المجهر الدقيق تبيّنها . ويستعان على اختبار وجودها بالتحليل الكيميائي . وإذا سقط المطر على سطح مطليٍّ بهذه المادة ، فانه يكوّن نقطاً منفصلةً بعضها عن بعض لا يتشرّبها السطح .

*

ومن مزايا تلك المادة أيضاً أنها تستعمل في أدوات المختبرات العلمية . فكثيراً ما يتسبب الماء وبخار الماء في تغشية سطوح أنابيب الاختبار المدرَّجة ، فتشقّ رؤية الأرقام رؤية واضحة . وقد أمكن ملافاة ذلك النقص ، بتعريض هذه الأنابيب إلى بخار السائل الكيميائي المتقدّم الذكر ، فسهلت رؤية الأرقام المنقوشة على الأنابيب .

البنسلين أيضاً

أعلنت جامعة أريزونا (بفونكس) أن البنسلين استخدم بنجاح في قتل سرطان النبات ، وهو مرض فتاك تتسبب البكتيريا في انتشاره .

مستقبل القطن الطبيعي

جاء في تقرير لوزارة الزراعة الأميركية أنه سيستعاض من القطن الطبيعي" في كثير من مصنوعات مابعد الحرب بالأنسجة الصناعية التي أصابت تقدماً كبيراً في أثناء توسع الانتاج الصناعي" في زمن الحرب .

وينتظر في الوقت نفسه أن تفتح أسواق جديدة للقطن الطبيعي" في المناطق الأخرى التي تقوم فيها تجارب لاستخدام القطن الطبيعي" في صناعة الأجهزة العازلة والعجائن الكيميائية وأنواع معينة من الملابس والأنسجة والخامات التي تستخدم في صناعة الأنسجة .

وقد نجح استخدام القطن أخيراً كمادة مانعة للماء والحرارة والبرودة ، وبذلك يتسنى استخدامه في الأبنية والسيارات .

وأشار التقرير إلى أن العجائن الكيميائية ستصبح من أهم وجوه استهلاك القطن الذي يستخدم الآن" لتغذية العجائن التي تتطلب المرونة والمتانة وخفة الوزن .

سلاح الصاروخ

ليس الصاروخ كشفاً جديد ، إذ عرفه الصينيون حوالي عام ١٣٠٠ . وقد أجريت في مدفعية الحرب الكبرى الماضية عدة تجارب في استخدام الصاروخ ، ولكن الصلح أبرم قبل أن يصل العلماء إلى نتائج ذات شأن . واستمر البحث زمن السلم ، وخاصة فيما يتعلق بالدسر (أي الدفع إلى الأمام) ، وأجرى العلامة « فرتز أوبل » عدة تجارب على السيارات المسيرة بالصاروخ . أما في هذه الحرب ، فقد أمكن الحصول على نتائج باهرة في هذا الفن .

والصاروخ قذيفة مُسيَّرة بذاتها ، تختلف عن القذائف المدفعية الأخرى في أن قوتها الدافعة تتولد من رد فعل الغازات المحترقة داخلها وهذا هو المبدأ العام لجميع أنواع الصواريخ .

وإليك ملخَّص طريقة عمل هذه الصواريخ : تشعل القذيفة الدافعة سواء بالكهربا أو بالفتيل من أجهزة داخل الصاروخ ، فيولّد ذلك غازات تتمدد في جميع الاتجاهات موزعة عليها ضغطاً متساوياً . فالغازات الجانبيّة يتعادل بعضها بعضاً ، أما الغازات التي تتولّد من الخلف فإنها تخرج بقوّة فتدفع الصاروخ نحو الهدف .

وينتظر لهذا السلاح تقدمٌ كبير في السنوات القادمة .

وديع فلسطين

قواعد بسيطة للطعام الصحي

الأولى — الإكثار من شرب اللبن وما يصنع منهُ، ويحسن إذا أمكن أن لا يكتفي الانسان بأقل من رطلين من اللبن . فاللبن فضلاً عن كونهِ كثير المواد الفيتامينية ، فيه مقادير يسيرة جداً من العناصر المعدنية ولكنها على يسرها لازمة للجسم . ثم هو يساعد على إنماء نوع من الجراثيم النافعة في الأمعاء ، على قول بعض الأطباء ، فيتولد حامض يدعى الحامض « اللبنيك » وهو الذي يقضي في الأمعاء على بعض الجراثيم التي تفسد الأطعمة النشوية . فاذا أكثرنا من شرب اللبن قلَّ تولد المواد المضرة في الأمعاء

الثانية — في الخضر المورقة غذاء يختلف كل الاختلاف عن الغذاء في الخضر الجذرية كالبطاطس والجزر . ومن فوائد الخضر المورقة أنها تيسر حركة الأمعاء . وأهم هذه الخضر الأسبانخ والخسّ والكرنب والقرنبيط والبصل .

الثالثة — يجب الإكثار من أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة لكي نحصل منها على الفيتامين الذي يقاوم ويقي من المرض الذي كان يصيب البحارة والرحالين .

***

مجموعة فريدة
للصحف الشرقية

إن في بيروت ذخيرة تزيد في ثروتها ، والذخيرة بين يدي فاضل من فضلائها وعالم من علمائها الفيكنت فيليب دي طرازي ، وهي مجموعة للصحف لا نعرف لها أختاً في العالم ، وإن اشتهرت أوربة وأميركة بالتفوق في الجمع لذخائر الثقافة .

وما نظن القارئ يجهل من الفيكنت دي طرازي صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » الكتاب الذي ألفى الترحيب والتقدير ونزل منزلة السفر المعتمد في بابه .

انصرف الفيكنت دي طرازي منذ فتوته إلى جمع الكتب والصحف على نحو ما كان يصنع رجالات العرب وعلى نحو ما صنع أحمد تيمور وأحمد زكي عندنا ، فاتسقت له خزانة كتب حافلة فيها المطبوع والمخطوط ، فأنشأ بها « دار الكتب اللبنانية » في بيروت ثم أتحف الدار بألطاف وآثار جمع بعضها إلى بعض فانتظمت في شكل معرض فني. وأما مجموعة الصحف فلا تزال في حوزته .

إن هذه المجموعة لمن الضنائن ويا ليت مصر — وفيها دار الكتب وكلية الآداب ولاسيما معهد الصحافة — أن تكون لها

حافظة . هي مجموعة تضم الشوارد والغرائب والمفاريد . أقبل صاحبها على إنشائها سنة ١٨٨٧ فراسل الأدباء والصحافيين والمولعين بما قدم من المنشورات ، وكاف من كلف بالتقاط ما انقطع خروجه أو ابتدأ صدوره ، بل رحل إلى أطراف آسية وإفريقية وأوربة فظفر بما نصفه هنا .

المجموعة على قسمين عربي وغير عربي . أما العربي فيضم العدد الأول لكل صحيفة منذ نشأة الصحافة العربية ، وربما ضم عدداً ممتازاً صدر لأمر خاص . وكان المؤلف إن عجز عن الحصول على العدد الأول اقتنى الثاني أو الثالث فأتسق له من الصحف بين جرائد ومجلات مختلفة العنوانات ظهرت في الخافقين نحو أربعة آلاف ، منها ما يزيد على ثلاثة آلاف عدد أول .

وأما القسم غير العربي فيضم الصحف التي خرجت في حروف شرقية كالتركية والفارسية والعبرية والسريانية والحبشية والكردية والتترية والأردوية والأرمنية وغيرها . وبجنب ذلك عني الڤيكنت العربي بجمع طائفة من الصحف الافرنجية التي طبعت في بلاد الشرق أو التي نشرها الشرقيون في بلاد الغرب ويربي عدد تلك الصحف غير العربية على ثلاثة آلاف .

ولهذه المجموعة — وفيها أعداد مخطوطة لا مطبوعة — ترتيب حسن يجري على ناحيتين : الناحية الجغرافية والناحية التاريخية فبحسب الأولى قسمت المجموعة خمسة أقسام على عدد قارات العالم ثم جزئت كل قارة إلى دول ، وكسرت الدول على فروع ، والفروع على توابع ، فمن العواصم حتى القرى . وبحسب الناحية الثانية سُلسلت الصحف على تعاقب السنين من الزمن الأبعد إلى الأقرب . وتقريباً للمأخذ صنع صاحب المجموعة فهارس شاملة ومسارد وافية أدرج فيها على التتالي أسماء المنشئين وأسامي الصحف .

تلك هي المجموعة التي نرجو أن تبقى في الشرق العربي بل في مركزه الثقافي مصر . فاننا نعلم أن عيوناً شاخصة اليها وأن خزانات طامعة فيها . ذلك لأنها ذخيرة ثمينة من جانب تاريخ الصحافة العربية خاصة والشرقية عامة ثم من جانب النفاسة والندرة على وجه الاطلاق .

إنها المجموعة لن يتهيأ اتساقها اليوم لأحد مهما يبذل من السعي .

***

ونحن نهنئ الڤيكنت الهمّام بدأبه العلمي ونذكر له فضله ونسأل الله أن يمدّ في عمره ، فهو من العلماء العاملين الذين رصدوا حياتهم وثروتهم وسعيهم لخدمة المعرفة ولتوسيع الثقافة ولبذل أدوات الاطلاع والتحصيل لمواطنيه . ولعلّ لبنان يقدر هذا الفضل ويُنزل صاحبه المنزلة التي هو أهل لها وبها أحقّ .

*

فهرس الجزء الاول

من المجلد السادس بعد المائة

١ عقّار جديد لعلاج السل والجذام
٨ على المشنقة (قصة) : لمحمود تيمور
١٧ على هامش الطب : للدكتور سليمان عزمي باشا
٢٥ أبو العلاء وبيئته : لأدوار مرقص
٣٢ مياه عين الفيجة
٣٥ كانت والعقل الجرماني الحديث : نقله عبد الكريم الحمود
٤٠ منشأ الدولة الأتابكية : لناجي الطنطاوي
٤٤ التمثيل الخارجي : للدكتور نجيب الأرمنازي
٥٧ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

باب التعريف والتنقيب

٦١ سنة مضت : بقلم ب. ف.
صورتان من الفن العربي في دمشق
١ — الكتب : « أبو نواس » تأليف عبد الرحمن صدقي . نقد بقلم محمد عبد الغني حسن — «جمهور أرسطفانس» تأليف فكتور ايرنبرج . نقد بقلم وهيب كامل — «رسالة الملائكة» للمعري ، تحقيق وشرح محمد سليم الجندي . نقد بقلم رفعت فتح الله — «كتاب فتوح إفريقية والاندلس» تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم ، نشره وترجمه جاتو . نقد بقلم زكي محمد حسن — ثم كتب ظهرت
٢ — المجلات : «الأديب» العدد الخاص بأبي العلاء . نقد بقلم عبد السلام محمد هارون
٣ — المسرح : «صفق الجمهور فصفق النقاد» . بقلم زكي طليمات
٤ — الاستدراك : الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث ، للتوحيدي . بقلم مصطفى جواد
٥ — المسائل : «الأديب وحرفته» بقلم بشر فارس
٨٨ باب الأخبار العلمية * ثمرات الحرب الحالية في العلوم والفنون : لعوض جندي . رداء غير منظور يقي من البلل . البنسلين أيضاً . مستقبل القطن الطبيعي . سلاح الصاروخ: لوديع فلسطين. قواعد بسيطة للطعام الصحي . مجموعة فريدة للصحف الشرقية . لدى الفيكنت دي طرازي ببيروت